

الدولة الأموية

في قرطبة

تأليف

أنيس زكريا النصولي

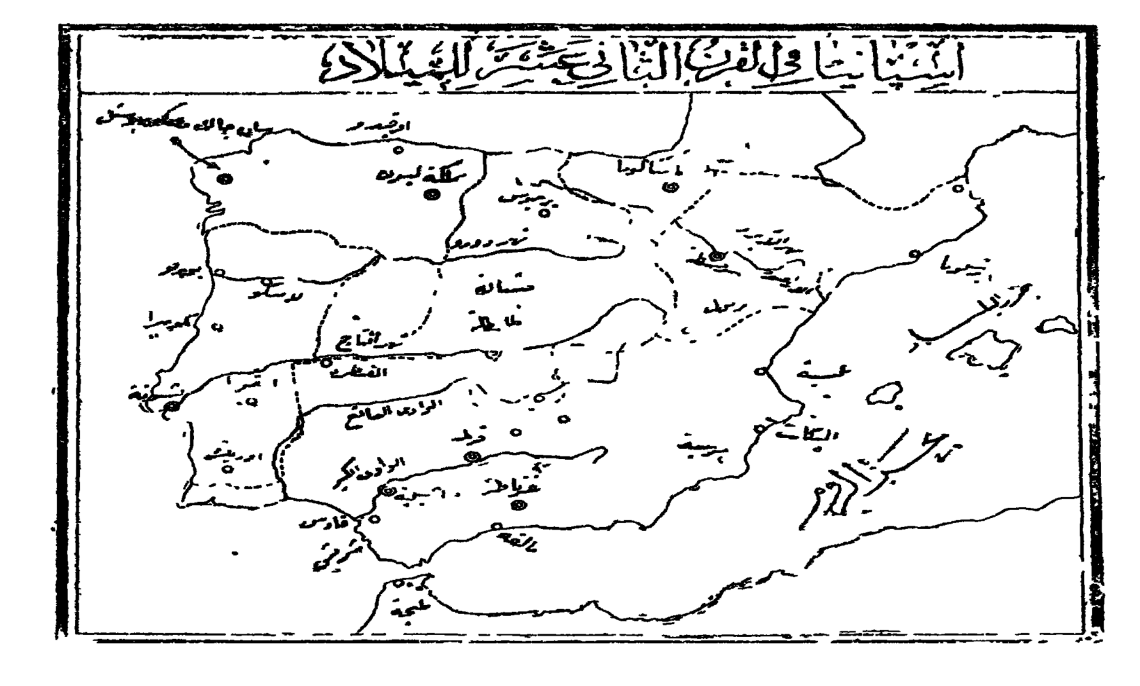
— مؤلف معاوية بن ابي سفيان —

ومدرس التاريخ في المدرسة الثانوية ودار المعلمين في بغداد

الجزء الاول

المطبعة العصرية

بغداد سنة ١٣٤٤هـ
١٩٢٦م


اسبانيا في القرن الثاني عشر للميلاد
مملكة ليون
قشتالة
طليطلة
قرطبة
غرناطة
قادس
مالقة
طنجة

بلاد الأندلس

اقتبسناها عن كتاب معالم تاريخ العصور الوسطى تأليف محمد رفعت ومحمد احمد حسونه بمصر

الدولة الأموية

في قرطبة

تأليف

أنيس زكريا النصولي

مؤلف — معاوية بن ابي سفيان —
ومدرس التاريخ في المدرسة الثانوية ودار المعلمين في بغداد

الجزء الاول

طبع في

المطبعة العصرية

اهداء الكتاب

الى أمي

أنيس



دفعني الى انشاء هذه الفصول الاندلسية عوامل ثلاثة :

الاول : حناني الشديد الى التحدث لابناء العرب عن الامويين في قرطبة باسلوب علمي سهل لامجال للعاطفة والتعصب فيه واسناد كل الاسباب الى مسبباتها سواء كانت طبيعية او اجتماعية او سياسية او دينية

الثاني : ولوعي بدراسة هذا الموضوع فرجعت الى المصادرالعربية والافرنجية التي وقعت بين يدي في سوريا والعراق منذ ان كنت طالبا في جامعة بيروت الاميركية .

الثالث : احياء ذلك التراث العربي الذي كادت ان تواريه الايام ويطويه الاهمال فان اصبت فهذا منتهى املي وان اخطأت فكلي آذان لسماع الحقيقة من اهل الفضل وارباب الانتقاد العلمي العمراني .

انيس زكريا النصولي

الفصل الاول

فتح الاندلس

ان اسبانيا الجميلة التي يطلق عليها العرب اسم الاندلس كانت قبل الفتح منهوكة القوى تتآكلها الاحزاب وتنفخ فيها سموم التفرقة والخذلان فشعبها كان يئن من عسف الارستقراطية وتتألم اقليته من الاضطهاد. اجل كانت هنالك اسباب تضرب بمعولها من وراء صرح المملكة القوطية وان اردنا ان نعرف قوة الامة وجب ان لا نأخذ مقياسا لها ابهتها وولائمها وما تظهره من المظاهر البراقة الخلابة بل يجب ان نبحث هنا وهنالك بين افراد الشعب اذ الشعب هو الكتلة التي تتألف منه قوة الامة وعظمتها، يجب ان نبحث عن سعادة الطبقة الوسطى التي من ابنائها نرى التاجر والصانع والعامل والفلاح وعن اولئك الذين عضهم الفقر بنابه فكانوا العبيد كما يدعونهم.

وهكذا اسبانيا فقد كان الضعف مستوليا على ارجائها كمقاطعة رومانية حكمها القياصرة المتأخرون وكانت كالبقية الباقية من المقاطعات الرومانية سيئة الحال. وقد قال عنها المؤرخ Salvien الذي عاش في القرن الخامس للميلاد انه لم يبق من اسبانيا الخصبة السعيدة غير اسمها [1].

ذلك لان جميع الاقطاعات التي يسمونها لاتيفنديا Latifundia قد

(١) Histoire des Musulmans d'Espagne الجزء الثاني صفحة ٤

اغتصبها الاغنياء القليلو العدد وجعلوها ملكا حلالا لهم يتصرفون بها كما يشاؤون . وكانت الضرائب تجبى من الشعب الوسط فاثقلت كاهله بينا ى الاغنياء والكهنة ومتشرعى الحكومة وكل من حاز القابا سامية قد أعفي منها . وكان هؤلاء يعيشون فى قراهم الجميلة القائمة الى جانب الانهر وعلى سفوح التلال مترفين يمضون اوقاتهم فى مختلف الالعاب كالقنص وغيره لاهم لهم غير الاكل والنوم والاستحمام وكان بعضهم يجيد القراءة فيلهوبها . ثم فى قصورهم التي زينت بأنواع الرسوم اللطيفه كان العبد يقف في غرف الاكل لكي يخدم اسياده وهم يشربون الخمر الفاخرة ويشنفون آذانهم بانغام الموسيقى ويمتعون انظارهم برؤية الراقصات والراقصين

وحياة كهذه لابد تريك الفرق الجسيم الذي يفصل الاغنياء عن بقية الشعب الفقير وضعفاء الملاك . وكانت العبودية الزراعية Esclavage Agricole قد انتشرت فى هذه الطبقة انتشاراً هائلا وهي الحالة الوسطى بين الحرية الحقيقية والعبودية . كان هؤلاء العبيد الزراع أوفر حظا من بقية العبيد اذ انه كان يؤذن لهم بشيء من غلات الارض التي يفلحونها ولهم امتيازات منها التزوج من غير استشارة صاحب الارض وكان ذلك ممنوعا على بقية العبيد . اما الحكومة فكانت تعيرهم جانبا من التفاتها فيجندون و يدفعون ضريبة الاعناق . وما كان لصاحب الارض ان يحرمهم مما اقطعهم اياه ولا هم قادرون ان يبيعوا ما أعطوه الا باذن من مالكه .

وحقيقة الحال انهم كانوا عبيداً للارض لا للانسان فما كانوا ليباعوا دون الارض التي يعملون عليها ولا كانت الارض تباع دونهم وعلاقتهم

بها علاقة لا تحل وهي وراثية يتناولها الابناء من الآباء [١].

اما العبيد فكانوا اتمس البشر حظا يباعون ويشرون كحيوان من الحيوانات او متاع من امتعة البيت . وهم كثيرو العدد نسبة الى الاحرار فكان الواحد من اصحاب الاقطاعات يملك اربعة آلاف او خمسة آلاف او ثمانية آلاف من هؤلاء البؤساء وكانوا يعاملون بلا شفقة ولا رحمة تلعب السياط بابدانهم وتزهق ارواحهم ظلمات السجون ولذا كانوا يهربون الى الحاج ويقيمون فى الاودية والجبال ثم يسطون على املاك اسيادهم آنا بعد آن و يسلبون السابلة ويقطعون الطرق . تلكم كانت حالة الشعب الاسبانى فى العصر الروماني الاخير وقد ظلت هذه الشرائع الرومانية سائدة في الحكم الاقطاعي ايام القوط ترهق العبيد والزراع ظلما حتى عشية الفتح الاسلامى .

الى جانب المتألمين من الشعب الاسباني يجب ان نضم اليهود الذين قاسوا من الاضطهاد الشيء الكثير فلا بدع اذا طربوا يوم قدم العرب الى افريقية اذ انهم كانوا يودون التخلص من الاسياد القوطيين واستبدالهم بالاسياد من العرب . كانوا قبل ان يتسنم الملك ريكارد العرش الاسباني (٥٨٦ — ٦٠١) فى سعادة وهناء لانهم كانوا مديري دفة المالية فى الاندلس لما لهم من الخبرة الواسعة فى الاقتصاديات والمامهم بدقائق التجارة واحوالها واليهم كان يرجع حرث الارض واستدرار خيراتها وغناها [١] ولكن لم يكد ريكارد يستلم زمام الامور

(١) "Histoire des Musulmans d Espagne "DOZY الجزء الثانى صفحة ٧

(١) History of the Jews by H. H. Milman D. D. الجزء الثانى صفحة ٢٥١ راجع الفصل الثانى والعشرين من هذا الجزء .

حتى عقدت المؤتمرات القاضية بتعذيبهم وسنت القوانين لاضطهادهم وذلك بدافع التعصب والحسد والطمع فما عاد يؤذن لليهود باقامة شعائرهم الدينية ولا الزواج حسب شريعتهم وتقاليدهم ولا أبيح لهم الختان ولا اتقاء اللحوم ولا التفريق بينها ولا الشهادة على المسيحيين ولو بحق وكل من يخالف هذه الاوامر يرجم بالحجارة حتي يموت او يحرق حيا . وهذه القوانين ماكانت لتوضع فى بدئها موضع التنفيذ تماما وذلك لما كان يبذله اليهود من الاموال على سبيل الرشوة لاولياء الامور وقد زاد عليها الملك سبوت (٦١٢—٦٢٠) غيرها من المواد منها عدم الاذن لليهود باقتناء العبيد من المسيحيين ومن لم يسر بحسب ذلك يحجز نصف املاكه ومقتنياته

ولما كان الزواج شائعا بين اليهود والمسيحيين من الجنسين فقد صدر قانون فى هذا الشان يقضي بان يُربى الابناء المولودون من والدين احدهما مسيحي حسب المعتقد المسيحي . اما من يرتد من اليهود الذين تنصروا فكان يحكم عليهم بالعبودية الدائمة

ولم يكتف الملك سبوت بهذه القوانين بل صمم على اعدام الامة اليهودية فى اسبانيا ولذلك امر بان يعتنق اليهود اجمعهم الدين المسيحى والا كان جزاؤهم الطرد من البلاد فتنصر منهم تسعون الفا مسيرين لا مخيرين وقد أُجبر كثير منهم على الهرب الى فرنسا وافريقية . اما من اصرّ منهم على اتباع معتقده فعومل بالشدة وقاسى في غياهب السجون عذابا شديداً

وممن وقف معارضا الملك فى احكامه العالم ايسيدور الاشبيلي

(٥٦٠—٦٣٦) Isidore of Seville ومع ذلك فكانت صرخاته في واد

ولما كان العدد الاكبر من اليهود قد ظل على معتقده سراً وان اظهر النصرانية علنا فقد امر مجمع طليطلة لرابع سنة ٦٣٣م ان يؤخذ منهم اطفالهم لكي يربوا في الاديرة [١] اما مجمع طليطلة السادس (٦٣٨ م) فماب تساهل المجمع الرابع وقرران لايعتلي ملك عرش اسبانيا الا اذا اقسم انه يضطهد اليهود ومن لم يفعل ذلك منهم يخلع [٢] ولذا نرى بعد ذلك مجمع طليطلة الثامن يجبر الملك ان يحافظ على قسمه وان ينفذ القوانين المختصة باضطهادهم

وليس من الغريب ان نري يهود اسبانيا تتآمر مع يهود افريقية لاستعجال العرب الفاتحين الذين امتد سلطانهم على افريقية الشمالية ولذا اتهموا بالجريمة الكبرى وهي انهم حاولوا تسليم البلاد للاعداء واسقاط الملكية وذبح المسيحيين فشدد الملك اجيكا Ejica النكير عليهم وعقد مجمعا في طليطلة طلب فيه عقابهم الشديد وقد اقر اليهود يومئذ ان بعملهم هذا ارادوا ان يجعلوا اسبانية يهودية فحكم عليهم بالعبودية وحرمهم املاكهم ومنع الزواج فيما بينهم فاصبحت اليهودية لاتتزوج الا مسيحيا واليهودي لايتزوج الا نصرانية [٣] وشتتوا في انحاء المملكة اوهربوا او ساعدوا المسلمين بكل مالديهم من مال وقوة ومع كل ما لاقوه لم يتحولوا عن دينهم بل حافظوا عليه وتمسكوا به [٤] وكانت نتيجة

---

(١) Coppe الجزء الاول صفحة ٢٠٥ . Dozy الجزء الثاني صفحة ٢٦ . Milman الجزء الثاني صفحة ٢٥٥

(٢) Milman الجزء الثاني ٢٥٦ . Dozy الجزء الثاني صفحة ٢٧

(٣) Milman الجزء الثاني صفحة ٢٦١ . Dozy الجزء الثاني صفحة ٢٨

(٤) ذلكم لان الشدة متى تجاوزت حدها جعلت من المضطهدين رجالا .

الأضطهاد ان جعلت منهم قوة من اعظم القوى التي دمرت المملكة القوطية [١] فان مساعدة اليهود لفئة صغيرة من العرب جعلتهم ان يخضعوا امة تتألف من ستة ملايين

وكان كل من العرب واليهود يعمل لمصلحته الخاصة فاليهودي قوي عاله وقد زاده اضطهاده المتواصل قوة وجعل منه رجلا شديد الانتقام يطلب التخلص من الكاوس القوطي واستبداله بحكومة متساهلة تكفل له الراحة والهناء لكي يعلي شان المعاملة وكسب الاموال . اما العربي فكان يود الغنيمة من الفتح ولذا اتفق الشعبان فى الغاية

ولا يغرب عن بالنا ان اليهود بعد الفتح كانوا اما ان عاثوا الاسبان على العرب او العرب على الاسبان وذلك حسب ماتقتضيه مصالحهم فلما اضطهدهم العرب لما لهم الوفير رجعوا الى الاسبان خاطبين مودتهم طالبين مساعدتهم وساعدوا الفونس السادس على تسنم عرشي قسطاله وليون سنة ١٠٨٥ م [٢]

لاشبهة ان لليهود ضلعا كبيراً فى فتح اسبانيا وان اهمل ذكرهم مؤرخو العرب والاسبان ولابد ان يكون موسى بن نصير قد جعل من اليهود انصاراً واعوانا اذ منهم كان يأخذ التعليمات والاخبار عن اعدائه مع الاحصاءآت الكثيرة وذلك عن طريق التجارة وبها توصل العرب الى معرفة حقائق جمة . وكان لهم علاقات كبيرة مع الكونت يوليان

---

(١) History of the Moorish Empire in Europe by S. P. Scott الجزء الاول صفحة ٢١٢ — ٣١٢

(٢) Coppe الجزء الاول صفحة ٢٠٨

حليف العرب في الفتح اذ هو ايضا طلب مساعدتهم وقد اظهر اليهود للقائدين موسى و يوليان كرما حاتميا لان الصفقة رابحة والتجارة غير خاسرة(١) . . . . .

اما اتصال اليهود باسبانيا فيرجع الى عهد سليمان وذلك حينما كانت اساطيله تنتاب من ترشيش حاملة اليها الذهب والفضة والعاج وكان بعض تجارهم قداستوطنوا اسبانيا وجعلت جاليتهم تكثر في الاندلس لكثرة من ساد على وطنهم من جيوش الفاتحين فاخذوا يهاجرون الى اسبانيا موجات موجات عن طريق افريقية الشمالية ولما هدم طيطس القدس (اورشليم) ام قسم كبير منهم تلكم الديار ونظراً لذكائهم ومهارتهم في الصناعة والتجارة فاقوا الشعوب الاسبانية بما جمعوه من المال فادى ذلك الى اضطهادهم وكرههم مع شيء من العوامل الدينية

وكان في اسبانيا حزبان يتطاحنان كل منهما يود التسلط والقضاء على الحزب الآخر. الاول رئيسه ابناء غيطشه Witiza والثاني رئيسه لذريق (رودريك Roderik) مغتصب عرش ابيهم

وذلك انه لما توفي اجيكا الملك القوطي في نوفبر سنة ٧٠١ تسنم العرش ابنه غيطشه الذي كان حاكما في الشمال الغربي من المملكة وقد كان من بدء اعماله اعفاؤه القوم من بعض الضرائب وبذله المال للرجال والعفو عن المنفيين الذين كانوا قد أبعدوا بامر من ابيه وذلك لكي يستولي على القلوب و يعيش امنا ولكنه بعد ان سار شوطا جليلا في ميدان الاصلاح احاط نفسه بحاشية مبتذلة ليس لها من الاخلاق

(١) T.I.C الجزء الاول صفحة ٢٠٩

السامية مايردعها عن ارتكاب المنكرات وعلى رأسها الملك نفسه

وقد كانت الكنيسة الرومانية ناقمة عليه لاعطائه الرخصة للكهنة بالزواج واصدار اوامره لليهود المنفيين بالرجوع الى اسبانيا واستمتاعهم بالحقوق الوطنية الاهلية التي كانت للمسيحيين حتى انه اعلن ذلك في مؤتمر عقده في طليطلة

ولما اتاه رسول البابا طالبا اليه ان لاينفذ ما اصدره من القرارات ضرب بملاحظاته عرض الحائط وابى ان يلبي طلبه وعوّل ان يجعل الكنيسة تابعة لاوامره ولاجل ذلك اصدر قراراً ينص بان يكون للكنيسة «رئيسان» حاميان لها ولذا عين اخاه أوباس Oppas مطران اشبيلية مطرانا لطليطلة ايضا بجانب سندريدو Sinderedo رسول البابا فيها ليكون عونا عليه ورقيبا (١)

وهذه الحال المملوءة من الانحطاط الاخلاقي حملت الشعب على الثورة ومناصبة الملك العداء . لكن الملك كان رقيبا عليهم وقد اخذ عدته لمناجزتهم الحساب ففتك بالامراء والكبراء الذين كان الشعب يعتمد عليهم وهذا مازاد في سخطهم وكرههم له

ثم امر ان تهدم اسوار المدن الثائرة وان تخلى الحصون من وسائل الدفاع (٢) ومما زاد في الطين بلة جمعه سلاح الاهلين حتى جعلهم ضحايا اعتسافه على ان هذا لم يطل فانه توفى سنة ٧٠٩ م

وتسلط لذريق اكبر زعماء المعارضين لغيطشه وتغلب على الاندلس

---

(١) Coppe الجزء الاول صفحه ١٥٠

(٢) Coppe الجزء الاول صفحة ١٥٣

ولم يكن من سلالة الملوك (١) الذين اعتلوا عرش اسبانيا بل رجلا نبيلا محترما لشجاعته ومواهبه . وضع نفسه على رأس حزب شعبي فرفعه الى العرش بدلا من وارثيه الشرعيين . وكان حزبه يتألف من الرومانيين الذين استوطنوا اسبانيا ورجال الكنيسة الكاثوليكية قد نجح لذريق باستمالة هؤلاء وبعض كبار بلاط غيطشة الذين نظروا الى المستقبل وما يحيط به من غياهب السياسة المقبلة وهم على الغالب ممن يمثلون الدور رين في كل مملكة ويجعلون الاحزاب وسيلة لغاياتهم الشخصية

ثم ان غيطشة كان قد منع الزواج بين الرومان والقوط لكي يجعل حداً واضحا وفراغا كبيراً بين القوط الغالبين والرومان المغلوبين (٢) وهذا ما ادى الى التنافر بين الشعبين بدلا من تقاربهما واندماجهما بصلات القرابة

ولهذا كان الشعب متهيئا للثورة فاشتعلت فى قرطبة حيث يكثر اشياع لذريق من الرومان ورجال الكنيسة الكاثوليكية وسار الى طليطلة حيث توج وما كاد يعتلي العرش حتى نسي الشعبية وغاص مع حاشيته فى بحور اللهو فقضى اوقاته بين الكؤوس والولائم حتى اعتل جمعه ولم يعد فى جنده تلكم الروح الحربية المجيدة والحماسة الزائدة التي دفعت القوط من قبل الى اجتناء اكاليل النصر من البلطيك الى البحر المتوسط

ان الضرائب الجسيمة التى كانت تجبي من الشعب لاجل ترف الملك ولهو اصحابه لم تكن نتيجتها الا الشقاء والفقر المدقع فى الامة . هذا عدا الطاعون الذى كان يرتاد البلاد مرة اثر اخرى من ايام اجيكا فيخضهم

(١) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب لاحمد المقرى الطبعة الازهرية المصرية الجزء الاول صفحة ١١٧ (٢) [illegible] جزء اول صفحة ١٧٥

الجوع ببابه . اجل ذلك خسر القوط قواهم الحربية حتى انهم اصبحوا فريسة لاي عدو مهاجم

ولما كانت قرطبة مركزاً رئيسيا لاشياعه الرومان والكاثوليك فقد جعلها عاصمته بدلا من طليطلة التي كان فيها انصار غيطشة وابناؤه . ونزل في القصر الذي يدعوه العرب بلاط لذريق

اما ابناء غيطشه وحزبهم فكانوا يميلون الى العرب لكي يتخلصوا من لذريق المغتصب ويقول ابن القوطية انهم ثلاثة المند Olemundo ورملة Romulo وارطباس Ardabast ولكنهم لم يستقدموهم لافتتح ولم يجعلوا زوارقهم تحت امرتهم لنقل الجنود[1] اذ ان الزوارق التي ام بها العرب الاندلس هي للكونت يوليان وهذا ما يؤكده جميع مؤرخي العرب ولم يسر ابناء غيطشه ويخابروا طارقا الا حين نزل المسلمون اسبانيا . ترى ما كان مقصدهم في خيانة لذريق ؟ هل كانوا يريدون بذلك المحافظة على املاكهم كما يدعي ابن القوطية ؟

هذا ما نعتقده امراً ثانويا في نظرهم اذ ان الهدف الذي كانوا يرمون اليه بكل قواهم هو السلطة والعرش ولم يفكروا ان تسليمهم البلاد للمسلمين هي الوسيلة الوحيدة لبلوغ امانيهم بل كانوا يظنون ان هؤلاء العرب الغرباء راغبون في المغنم عاملون على القفول لا حاجة لهم في استيطان بلادهم[2] بل ربما كفوهم امر لذريق فاذا ما انصرفوا اقعدوا في ملكهم من يستحقه ان ذلكم الاستنتاج كان عاليا منطقيا اذ ان

---

(1) Recherches sur l'Histoire et la Litterature De l'Espagne pendant le Moyen Age par R. Dozy الجزء الاول صفحة ٦٩

(٢) نفح الطيب الطبعة الازهرية المصرية صفحة ١٢٠ الجزء الاول.

طارقا اتى اسبانيا بحملته لا كتشافها وسلب شواطئها لكن سلفه ولو كان موسى عالما بان تلكم الغزوة ستتحول الى فتح كبير لجهز طارقا بالجيوش الكثيرة لا بحملة تتألف من اثني عشر الفا بامدادها ولأتى بنفسه ليفخر بشرف الفتح ويكون له النصيب الاوفر من الغنيمة . ويؤكد ذلك المؤرخون العرب بدعواهم ان موسى حسد طارقا لانتصاراته الباهرة وقوله له يوم التقى به فى اسبانيا حين قدمها « ما دعاك الى الايغال والتقحم فى البلاد بغير امري وانما كنت بعثتك غازيا ثم تنصرف » [1] .

وهذاما يثبت لنا ان تفكير ابناء غيطشه كان حقا اذ ان العدو لم يأت بلادهم للاقامة فيها واعلاء كلمته ورفع لوائه ونشر دينه وشرائعه ولكن الفتح على ما سنذكر اخذ دوراً لم يفكر فيه ابناء غيطشه وموسى حتى ولا طارق نفسه وذلك انه لما رأى تضعضع الجيش القوطي امامه وانخذاله لم يسر بحسب الاوامر المعطاة اليه ولم يرجع الى افريقيا كما امره موسى بل سار الى الامام فاصبحت اسبانيا فى قبضته , وقد مكنه الاهلون ايضا من الانتصار اذ انهم رأوا فى جيشه رسل الحرية وهادمي صرح العبودية فتزعزعت اركان المملكة وخضع امراؤها وكبارها له فحذا حذوهم ابناء غيطشه وعقدوا المعاهدات مع المسلمين وبهذا يحفظون املاكهم [2] ولا ريب انهم بطمعهم فى السلطة وانانيتهم كانوا

(١)(٢) هذا قول مريب عن المؤرخ « دوزي » من كتابه
Recherches sur l Histoire et la Litteratury de l'Espagne
الجزء الاول صفحة ٧١ و ٧٢

سببا قويا فى انتصار العرب وانخذال القوط .

ومن جملة الاسباب التي اضعفت اسبانيا هو انحطاط الكنيسة الاخلاقي . ان تلك القوة العاقلة التي رفعت العالم الانساني من الوحشية وسنت له من القوانين ما ظل محافظا عليها ليومنا قد اصبحت بيد قوم تطيب لهم الخمرة ويحلو لهم معاشرة الغيد وقد كانوا لا يعرفون من المعتقد المسيحي وفضيلته الا الطقوس والاحتفالات الخارجيـــة اما جرائم المرء الخاطي عندهم فكانت تعفى بقدر ما كان يدفع الى صندوق الكنيسة وجيب الكاهن من الاموال [٢] ولا ريب ان الفضيلة كان لها من بينهم انصار اذ ان لكل قانون شواذاً .

هذه هي الاسباب التي كانت تعمل دوما لهدم الدولة من الوجهة الاسبانية ولننظر الآن الى الاسباب التي جعلت العرب ان يروا فى الاندلس ميدانا واسعا لمطامعهم .

ان الشعلة الاسلامية التي سرت من الحجاز فعمت فارس والعراق وسوريا ومصر اخذت تفسح لنفسها طريقا الى موريتانيا وذلك من يد القائد موسي بن نصير .

ولد موسي فى خلافة عمر بن الخطاب سنة ١٩ هـ (٦٤٠ م) وابوه نصير اصله من مسيحيي عين التمر فى العراق ممن اصابهم خالد بن الوليد وقد صار بعد ذلك وضيعا لعبد العزيز بن مروان اما موسى فاظهر نجابة وذكاء فى صغره مما استلفت اليه انظار الخليفة . ولما ولي . هذا اخاه

(٢) History of the Moorish Empire in Europe by S. P. Scott الجزء الاول صفحة ١١٤

بشر بن مروان على البصرة اشخص معه موسى بن نصير وزيراً ومشيراً. فاقتطع هذا لنفسه من اموال العراق (١) مما يوجب عليه القانون المحاكمة فهرب الى دمشق ولجأ الى عبد العزيز اخي الخليفة وكان يأمل بموسى خيراً فحفظ حياته. ولما ولي عبد العزيز نائباً للخليفة على افريقيا صحبه موسى الى مصر فكان من اشرف الناس عنده وقد جعله قائداً عسكريا مهمته اخضاع البربر فسار اليهم ووطد شوكة الخليفة في الزاب ودرهار والصحراء ومصمودة واعتنق اكثرهم الاسلام ودفعوا الضريبة التي اشترطها عليهم. وهؤلاء البربر كالبدو الرحل يطلبون الماء والكلاء للمرعى جماعات جماعات ويغزون بعضهم بعضا فيأكل القوي منهم الضعيف. ولكثرة من بسط نفوذه عليهم من الدول كقرطاجنة وروما والفاندال والبيزانطيين لم تكن بينهم من رابطة تجمعهم الى ان جاء العرب فاحكم موسى الوصلة معهم. ومما سهل له ذلك اختلاف مذاهبهم ومعتقداتهم فاتى الاسلام دين الامة الفاتحة بلادهم والداعي الى اصلاح يفوق ما تعودوه من الوثنية دياناتهم القديمة فجمع العرب واياهم برابطة الدين القوية (٢) ولم يكن للنصرانية واليهودية بينهم من اساس ثابت وكان بعض قبائلهم قد اسلم باحتكاكهم مع الفاتحين الاول.

•

ان موسى رأى ما فعل الاسلام بتلكم الامة العربية من جمع شتاتها ورفعها الى مستوى الانسانية الراقي ولذا امل ان يجعل من الامة

---

(١) كتاب الامامة والسياسة مطبعة الفتوح الادبية الجزء الثاني صفحة ٤٩

(٢) Coppée الجزء الاول صفحة ٧١

البربرية رجالا يجمعهم والعرب معتقد واحد هو الاسلام. فكانت هذه هي خطتهُ التي سلكها وبها جعل لاعمالهِ العسكرية نتائج حسنة اذ لولاها لكانت المنفعة من هؤلاء البربر للاسلام عقيمة ان لم تكن كلاشيء. وموسى اشهر من عرف بنشر الدعوة الاسلامية فلقبهُ Coppe بحق Propagandist [1] فكان يتقرب منهم ويصلي بهم ويخطب فيهم فهرعوا اليهِ من كل جانب.

وفي السنة ٧٠٥ توفي عبدالملك بن مروان وخلفهُ ابنهُ الوليد الذي امتدت سلطتهُ من ضفاف الكنج الى شواطيء الاتلانتيك. وقد لقبهُ كوبه بالقائد الاكبر للمسلمين في المغرب وامير افريقيا فاتسعت سلطتهُ ولم يعد يتلقى الاوامر من نائب الخليفة في مصر بل من دمشق دار الخلافة. اما وقد اصبح البربر يدينون بدين الاسلام وهم مشهورون بحب القتال وفيهم تلك الغريزة الحربية وحب الغنيمة فعرف العرب موضع ضعفهم وجيشوا منهم الجيوش الى اسبانيا لكي يشغلوهم عن طلب الحياة الاستقلالية واتخذوهم حلفاء لهم في الفتح نظراً الى شجاعتهم وممارستهم القتال [2] وبذلك فاز العرب بقوى البربر ساعدهم الايمن في الفتح. وجعل موسى من طنجه قصبة ملكهم المحطة التي كان يضرب بها سبتة مفتاح اسبانيا.

لو نظرنا الى الخارطة لوجدنا ان افريقيا الشمالية متحدة جغرافيا

---

(١) ...'C I I الجزء الاول صفحة ٧٢

(٢) La Civilisation des. Arabes par Dr. Gustave Le Bon الجزء الاول صفحة ٢٦٩

مع اسبانيا لا يفصلهما الا مجاز طوله اثنا عشر ميلا وهي لا تختلف فى محصولاتها وتربتها ومناخها بالشيء الكثير عنها .

ان احتلال العرب افريقيا الشمالية وسكناهم بها حرك فيهم حب الفتح سيما وهي تشبه سوريا بسمائها الصافية وارضها الجميلة واليمن بطيبة الجو وحسنهِ والهند باطيابها وزهورها ومصر بخصبها والصين بحجارتها الكريمة [1] . اجل غناؤها الطبيعي ومدنها العامرة المملوءة بالآثار ومعادنها الكثيرة وانهارها الكبيرة ومياهها العذبة وتربتها الخصبة وحيواناتها المتعددة ومواسمها التي ضاهت مواسم النيل والفرات جعلت العرب ان لا يتخلوا عنها وهي سهلة الفتح والقياد [2] .

ان سبتة كانت الحصن الوحيد الذي ثبت امام العرب [3] وكان حاكمها يدعى يوليان قاتله موسى فالفاه فى نجدة وعدة فلم يطقه ورجع الى مدينة طنجة فاقام عن معهُ واخذ في الغارات على ما حولهم والتضييق عليهم والسفن تختلف اليها بالمؤن والذخائر من الاندلس من قبل ملكها غيطشه الى ان هلك واضطرب حبل البلاد بالمنازعات الحزبية ولم يكن يوليان حاكما لافريقية من قبل الملك الاسباني بل عاملا للامبراطور القسطنطينية على سبتة وضواحيها [4] . ولما كان حاكم سبتة محاطا بالبربر من كل جانب وبعيداً عن العاصمة البيزنطية لما بينهما من البعد الشاسع

---

(1) Gustave Le Bon الجزء الاول صفحة ٢٧٢

(2) History of the Moorish Empire in Europe الجزء الاول صفحة ٢٠٥

(3) Coppe الجزء الاول صفحة ٧٩

(4) Recherches sur l'Histoire et la Litterature de l'Espagne الجزء الاول صفحة ٦١

فمن البديهي ان يتقرب من الملك القوطي ، الملك المسيحي الوحيد في جواره ويخضع لسلطته الاسمية . وكان يلقب بالـ Exarchi او Exarque ومعناها الكونت .

وكان يوليان يرى في لذريق الرجل المغتصب ويميل الى حزب غيطشه اذ انه صهره وصديقه فلما استولى العرب على طنجه وطلب منه ابناء غيطشه المعونة على خصمهم لذريق تنازعته الاهواء فيما هل ينكب لذريق ويعقد معاهدة مع الاعداء تحفظ لهُ مصالحهُ وترجع الى العرش ورثتهُ الحقيقيين بمساعدة هؤلاء العرب الذين لايطلبون سوى الغنيمة ام يظل ثابتا الى النهاية . لكننا نعلم انه صمم على نكبة لذريق وينسب اكثر المؤرخين من العرب والافرنج ذلك لما لحقه من العار فى شرف ابنته فلورندا كافا [1]

ولكنه كان للمنافع السياسية والاقتصاديةالتى نوهنا عنها السبب الا كبر في انضمامه الى الفاتحين [2] ولم تزل جنسية يوليان رهن البحث و التنقيب فمنهم من يجمعه بالبربر وغيرهم بالقوط واليونان والرومان [3]

---

(١) نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب الطبعة الازهرية المصرية « يقول بذا الخصوص » انه كان من سير اكابر القواد والامراء في الاندلس ان يمشوا اولادهم الى طليطلة دار الملك ليتأدبوا بادبه فاتفق ان فعل ذلك يوليان فلما صارت ابنته عند لذريق احبها حباً شديداً ونكبها في شرفها فاعلمت بذلك اباها سراً فاشتدت حميته وود الانتقام — باختصار الجزء للاول صفحة ١١٨ و Coppee يذكر خبرها في الفصل السابع من الجزء الاول صفحة ١٩٤

(٢) History of the Moorish Empire in Europe الجزء الاول صفحة ٢٢٤

(٣) ان Scott ينسب يوليان الى الروم (اليونان) جزء اول صفحة ٢٢٢ و Coppee يعتقد انه رومانى اما مؤرخو الاسبان فيقولون انه قوطى الجزء الاول صفحة ١٩١ اما Dozy فيشك في جلسيته

وكانت جيوشه خليطا من شعوب افريقيا لم ينازعه الاسبان امارته حين تقلصت السيادة البيزنطية عنها ولا سطوا عليه لانهماكهم بالمنازعات الحزبية وتعدد من اعتلى العرش في امد قصير .

وكيما يصل الى هدفه اسر يوليان الى من يثق به ان يوعز الى لذريق في غزو غاسقونيا (جاليقية) في الشمال واخضاع البشكنس Basques وبذلك تم له ابعاده مع جنده وتسنى له ابرام ما وده من الشروط مع العرب دون رقيب . ويقول القرطبي ان معاهدته عقدت في القيروان اما المقري فيخالفه في ذلك ويذكر لنا انها تمت في سبتة وهذا هو الارجح ومهما يكن من امر الموضع الذي اجتمعوا فيه فيوليان قد جعل موسى على بينة من ضعف البلاد وخلو حصونها من الحامية ونقمة ابناء غيطشه . وشوقه الى فتحها فوصف له حسنها وما جمعت من اشتات المنافع وانواع المرافق وهون عليه ذلك حال رجالها ونعتهم بضعف البأس [(١)]

وليتحقق موسى صدق عزيمته طلب منه ان يشن الغارة على شواطئها مكتشفاً ففعل يوليان ذلك وحل بساحل الجزيرة الخضراء فاغار عليها وقتل وسبي ورجع بالغنائم وكان ذلك في دسمبر سنة ٧٠٩ م اي عقب سنة تسعين ه .

فكتب موسى الى امير المؤمنين الوليد يخبره بما تم له مع يوليان وما دعاه اليه ويستأذنه في اقتحام الجزيرة

---

(١) نفح الطيب الطبعة الازهرية جزء اول صفحة ١١٨

فامره ان خضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شانها [1] وذلك لكي لا يجازف بارواح المسلمين فبعث موسى آنئذ مولى له من البربر اسمه طريف يكنى ابا زرعه في اربعمائة رجال معهم مائة فارس سار بهم في اربع مراكب فنزل بطارفه وهي تقارب Aljeziras التي يدعوها العرب بالجزيرة الخضراء . فاصاب مغنما منها وكان ذلك سنة ٩١ هجرية

وقبل ان يتناول اسم الاندلس اسبانيا باجمعها فقد اطلقه بربر طريف على طارفه وذلك ان Traducta وهو اسمها الروماني هي الميناء الذي ابحر منه الفاندال الى افريقيا حين هجرتهم فاقترن اسمها بهم Vandalos « فاندلوس » وليس من الغريب ان يدعوها بربر طريف ولا ريب ان طارقا حين فتح اسبانيا مؤخراً وسمت الكلمة في عرفهم ولم تعد تطلق على طارفه ومقاطعتها فحسب بل على البلاد باجمعها [2]

وكانت جماعة من القرصان العرب أم الشواطئ الاسبانية غازية سابية غير متوغلة في البلاد قبل ان يحلم المسلمون بالفتح

حين تم ليوليان وطريف النصر اخذ موسى بالاستعداد واستجد عزما في اقتحام اسبانيا فدعا مولى له كان على مقدمته ومن اكبر المحرضين على غزوها يدعى طارق بن زياد بن عبد الله . ويقول كوبه Coppe انه فارسي همذاني وقد صار مولى لموسى من صغره الا انه على الراجح بربري من نفزة فلقبه المؤرخون بطارق البربري . وكان طويل

---

(١) نفح الطيب الطبعة الازهرية جزء اول صفحة ١١٨

(٢) Recherches sur l'Histoire et la Litterature de l'Espagne الجزء الاول صفحة ٣٠١—٣٠٢

القامـة احمر الشعر مبيضـه ويدعوه الاسبـان طارق Eltuerto اي الاحول [١]

فعقد له موسى سنة ٧١١ وبعثه في سبعة آلاف من الجند جلهم من افرسان البربر والموالي . اما العرب فكانوا قادتهم وضباطهم وهم لايزيدون على الثلاثمائة . ووجه معه يوليان فحمل هذا الجند اسطول تجاري يتألف من اربع سفن يمخرن في عباب الزقاق . وهو خاصة يوليان وقـد نزل الجند في منت كلبه Mont Calp الذي دعي جبل الفتح او جبل طارق

وبعد نزول الجند الى الشاطئ اخذت سراياه تضرب في الارض الرعب وتتقدم لشافته الفرسان في البلاد المجاورة . واول من وقف في وجه الفاتحين مدافعا عن البلاد هو القـائد ثيودمير The Thufir ويدعوه العرب تدمير واليه تنسب المقاطعة الواقعة في الجنوب الشرقي من الاندلس اذ كان حاكما عليها [٢] ولم يناجز العرب في معركة فاصلة بل كان يحمل عليهم مناوشات خفيفة آنا بعد آن ويرتد الى الوراء طالبا النجدة من الملك . ومن كتاب له الى عاهله قوله « انه قد نزل بارضنا قوم لاندري أمن السماء هم ام من الارض [٣] أرسل الينـا الامداد وان اتيت ياصاحب الجلالة بنفسك كان ذلك أولى »

---

(١) Coppe الجزء الاول صفحة ٧٨

(٢) Coppe الجزء الاول صفحة ٢٤٤

(٣ نفح الطيب الطبعة الازهرية المصرية صفحة ١١٢ . Coppe الجزء الاول صفحة ٢٤٥ و History of the Dominion of the Arabs in Spain, Conde جزء ١ صفحة ٥٥

ووقع على لذريق الملك خبر اقتحام العرب ساحل الاندلس وخيانة يوليان وهو في غزاة له في الشمال فاقبل بجموعه الى مدينة قرطبة واستفز اجناد الاسبان وكتب الى اولاد غيطشه يدعوهم الى الاجتماع معه على حرب العرب ويحضهم على ان يكونوا على عدوهم يداً واحدة [1] فاتوه مرصدين لمكروهه لما قدمناه من الاسباب واتوا قرطبه ونزلوا اكناف «شفندة» بعدوة نهرها

وعسكر لذريق في نحو ٥٠ الى ٩٠ الفا [2] ضعاف النفوس للترف الذي اصابهم وكان عدد وفير منهم لايحسنون استعمال السلاح. هذا عدا عن المشاحنات الحزبية والخيانة التي كانت تلعب من وراء ستار

فطلب طارق من موسى الامداد حين خف اليه لذريق بما لاقبل له به وكان هذا منذ وجه طارقا قد اخذ فى صنع السفن حتى صار عنده منها عدة كثيرة فحمل الى طارق فيها خمسة آلاف فاصبح جيشه اثني عشرة الفا [3]

وكان في هذه المدة قد تقدم طارق بجيشه الى جوار مدينة شدونه (صيدونا) ولذريق الى شاطئ الـ Guadal te كوادليتى «وادي لكة»

انه لمن الصعب ان نحدد الموقع الرسمي الذي اشتعلت فيه المعركة

(١) نفح الطيب الطبعة الازهرية المصرية الجزء الاول صفحة ١٢٠

(٢) المقرى و Coppe يعتقدان ان الجيش القوطى كان مائة الف اما Conde فيخالفهما ويقول ان الجيش القوطى كان تسعين الفا . ولكن ابن خلدون يقول ان الجيش كان اربعين الفا في الجزء الرابع صفحة ١١٧ . Coppe جزء اول صفحة ٢٤٦ Conde الجزء الاول صفحة ٥٦

(٣) المقرى جزء ١ صفحة ١٢٠

الفاصلة اذ انه غالبا ما يطلق على المعركة اسم النهر او البلد المجاور لها فلما استعرت نار الوقيعة بالقرب من مدينة Xer s de la Frontera [1] دعاها بعضهم بهذا الاسم . ويقال لها ايضا معركة Guadalete وهي مشهورة به نسبة الى النهر الذي كان الحد الفاصل بين الجيشين حين نشبت المعركة وهو يجري نحواً من خمسة وسبعين ميلا فى سهل شدونه وتصب مياهه فى خليج قادش . ومما يذكر ان القتال كان على اشده بالقرب من بحيرة La Janda امام مدينة شدونه

وقد دامت المعركة ثمانية ايام اكد كثير من المؤرخين خسران الاسبان اياها قبل ابتدائها لان عسف الملك كان قد ارهق نفوسهم وشل سواعدهم . اجل كانت معنوياتهم ضعيفة بينا كان العرب امة حربية لها من مجدها ثمانون عاما ادخلوا فيها ارضا الا فتحوها ولا التقوا بجيش الا كسروه [2]

ان جيش لذريق كان يتالف من رجال لا يعرفون الاخلاص ولا يعبأون ان ربح لذريق المعركة او خسرها انما كان موقفهم تجاهه موقف الرجل المتحين الفرص فان انتصر ابلوا معه وان رأوا منه ضعفا ولوا الادبار . ومع انهم كانوا عديدين فلم يكن سلاحهم بالجيد ولا تعودوا الهجوم كجسم واحد ولم تكن علاقة الجنود بالقادة مرضية .

اما الجيش الاسلامي فكان يختلف تمام الاختلاف عن الجيش الاسبنيولي يهجم كالرجل الواحد و ينظر الى الغنيمة نظر المشتاق الوله وكان عدد الفرسان يقارب نصف الجيش وقد اقبلوا وعليهم الزرد وفوق رؤوسهم العمائم البيض

---

(١) و تسمى بالعربية « محص شريش »

(٢) Coppe الجزء الاول صفحة ٨٠

وبايديهم القسي العربية [١] وكان لهم من يوليان المستامن اليهم في رجاله اكبر مساعد للاستدلال على العورات وتجسس الاخبار

وفي التاسع عشر من شهر تموز (يوليو سنة ٧١١) تواجه الجيشان وقبل ان تبدئ المعركة قام لذريق خطيباً وكان على سرير بين دابتين وعليه مظلة مكللة بالدر والياقوت والزبرجد ومن جملة قوله قد حان وقت الانتقام للامة الاسبانيولية العظيمة وللايمان المقدس من هؤلاء العرب وذكرهم بامجاد اجدادهم القوط وبقوة جيشهم العديد وبعد ذلك امر بالمعركة ان تبتدىء

ففي اليوم الاول كانت الوقيعة عبارة عن مناوشات طفيفة لم تسفر عن فوز احد الجيشين ولما اتى الليل خيم السلام عليهما الا انه لم يكد ينبلج فجر اليوم الثاني الا وحمي وطيس القتال وكان الانتصار فيه للقوط وذلك لكثرة عددهم . اما النتيجة فلم تكن فاصلة . وما كان العرب ليجازفوا برجالهم مع قلتهم وكثرة اعدائهم ولذا ابتدات معنوياتهم ان تضعف لكن طارقا قام فى اليوم الثالث خطيبا وسار بين الصفوف وبث روح الاقدام وحضهم على الثبات اذ ان القائد في هذا الموقف عظيم بشخصيته الساحرة وقوة بيانه كيف لا وهو امام جند كاد ان يولي الادبار فثبت قوما كاد الفشل ان يدب فى صفوفهم فتذهب ريحهم ويفشلون . انهُ دعاهم الى اعلاء كلمة الله والاستشهاد وهذه لها غاية التأثير لا سيما وحرارة الايمان لم تزل حديثة تضطرم نيرانها في صدورهم . وقد جعل الموت امامهم كأساً شرابهُ هنة الهينات اذ قال لهم « ابدأ بنفسي »

---

١ نفح الطيب صفحة ١١٣

فترك الانانية جانبا وجعل للتضحية المثال الاعلى وكان للغنيمة التاثير الاكبر باستيلائه على قلوبهم .

فهاجمت العرب صفوف القوط وحملوا عليهم حملة صادقة وراجت بعد ذلك اشاعة مقتل لذريق فى الجيش الاسباني فتضعضع . وفي هذه الحال العصيبة التي كانت مستوليه انحاز اوباس وولدا غيطشه اللذين كانا رأسي الجناحين الايمن والايسر الى طارق لما اضمروا فى سرهم من نيات العرب نحو البلاد وعقدوا واياه معاهدة تقضي بان يسلم اليهم اذا ظفر ضياع ابيهم بالاندلس كلها وكانت ثلاثة الاف ضيعة نفائس مختارة وهى التي سميت بعد ذلك صفايا الملوك (١) فانهزمت الميمنة والميسرة وثبت القلب بعدهما قليلا وفيه لذريق الا انه تقهقر اخيراً وولى الادبار وتقدم المسلمون بسرعة مطاردين فلول الجيش والهاربين كى لا يتركوا لهم فرصة يجمعون بها شتاتهم . وقد يظهر لنا جليا مما ذكرنا ان القتال الشديد دام نحواً من ثلاثة ايام والبقية من الثمانية ايام قضيت في مطاردة الاعداء .

اجل ان معركة ١٩ تموز سنة ٧١١ جعلت كل اسبانيا تحت رحمة العرب ويصفها الاسبان بقولهم انها من الوقائع المبكية .

وكانت غنائم العرب جلها من الخيل وبذلك تم لهم التقدم السريع في اسبانيا وتقدر قتلاهم بثلاثة الاف اذ ان الغنيمة قسمت على تسعة آلاف وكان الجيش قبلا اثني عشر الفا . اما خسارة الاسبان فهى ثلاثة اضعاف خسارة المسلمين وكان نصيب لذريق الغرق اذ ساخ الفرس في طين وحماة .

(١) نفح الطيب الجزء الاول صفحة ١٢١

ويعتقد كوبه Coppe ان طارقا لم يحرق الاسطول الذي حمله الى الشواطئ الاسبانية اذ كيف يتسنى لقائد غريب مهاجم قد طلب الامداد من موسى للظفر على اعدائه ان يحرق الاسطول الذي كان الواسطة الوحيدة لامداده و يقول ان الاسطول كان دوما حركة الاتصال بين الشاطئين الافريقي والاوربي فيصعب الجزم في صحة رواية حرقه (١)

ولكن طارقا درس عقلية جنوده البربر فعرف انهم قوم يتنافسون في الرئاسة و يفشلون اذا جملهم من البحر امالا يرقبونها عن كثب حين تشتعل الوقيعة ويهاجمهم العدو بجيشه الكثير، وقد صدق ظنه اذ كاد الجيش ان يولي الادبار في اليومين الاولين من معركة كوادليتي لو لم يقف فيهم خطيبا و يستدركهم بالوعود .

اما قول Coppe » في ان الاسطول كان دوما حركة الاتصال بين الشاطئين الافريقي والاوربي فهو اعتقاد وجيه يثبته المقري بقوله « ان موسى منذ وجه طارقا لوجهه اخذ في عمل السفن حتى صار عنده منها عدة كثيرة فحمل الى طارق فيها خمسة الاف من المسلمين مدداً » (٢) فنستنتج ان طارقا خرق السفن الاربع التي اقلته وليس الاسطول باجمعه . وقد ظل هذا دوما يمخر في عباب الزقاق حاملا الجنود والامداد والمؤن . ولما تسامع الناس من اهل بر العدوة بالفتح على طارق بالاندلس وسعة الغنائم فيها اقبلوا من كل وجه وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه

(١) Coppe الجزء الاول صفحة ٢٤٣—٢٤٤
(٢) نفح الطيب الجزء الاول صفحة ١٢٠

من مركب ولحقوا به .

ومن ثم احتل طارق المدن القريبة منه مثل (شريش Xeres)
ومورون Moron وقرمونه ومدور واشبيلية (وقد صالحة اهلها على
الجزية) واستجه (وقد دافعت دفاعا مجيداً) .

وفيما طارق يجمع جيشه لاتمام الفتح اذ بموسى يأمره بعدم التقدم
الى ان يأتيهُ بنفسه مع الامداد وينسب المؤرخون هذا المجال في صدره
من الحسد نحو القائد الظافر . لكن طارقا عقد مجلس شوراه للنظر فى
اوامر موسى فقرروا جميعهم متابعة الزحف مستندين ان موسى كان
جاهلا حالة الجيش الاسبانى وما آل اليه من التشتت وانهم بتأخرهم
يجعلون لفلول الجيوش الاسبانية فرصة سانحة للاتحاد ومناجزتهم معركة
شديدة ربما اتعبتهم وكان من اكبر المحرضين على ذلك يوليان وقد قال
لطارق أنئذ « هؤلاء ادلاء من اصحابي ففرق جيوشك معهم في جهات
فى البلاد واعمد انت الى طليطلة العاصمة حيث معظمهم فاشغل القوم
عن النظر في امرهم والاجتماع الى اولي رأيهم »[1]

فقسم طارق جيوشه الى ثلاث فرق[2] اسند قيادة الفرقة الاولى
منها الى مغيث الرومي[3] ويقول ابن حيان انهُ رومى سبي بالمشرق
وهو صغير فادبهُ عبدالملك بن مروان مع طفلهِ الوليد وقد نشأ مغيث
بدمشق وافصح بالعربية وتدرب على الركوب وانخرط فى سلك الجندية
فحاز منه النصيب الاوفر من التقدم حتى اسند اليهِ الفرقه الاولى لفتح

---

(١) الاحاطة فى اخبار غرناطه تأليف الوزير لسان الدين الخطيب صفحة ١٦ — ١٧
(٢) الاحاطه في اخبار غرناطه صفحة ١٧ و « « الجزء الاول صفحة ٢٨٨ —
(٣) نفح الطيب الجزء الثانى صفحة ٥٤ — ٥٥

قرطبة . وقد كان يعرف بشجاعتهِ ومعرفتهِ اساليب الحرب وخدعها .

اما الفرقة الثانية فقد اوكل اليها الزحف شرقا الى ملقا وكان يستلم زمامها زيد بن قاصد السكسكي وهو تابعي اصلهُ من مصر . وقد كانت الفرقة الثالثة تابعة لزيد ايضا وهذه تقدمت نحو غرناطه عاصمة البيرة .

اما الجسم الاكبر من الجيش فزحف شمالا الى طليطلة العاصمة عن طريق قرطبه . وكان موعد اجتماع الفرق الثلاث مع طارق بعد اتمام ما وكل اليهم من الفتح في جان .

ورحل عن قرطبة عظماء اهلها الى طليطلة وبقي فيها اميرها مع اربعمائة فارس من حماتها فكمن مغيث حين وصل اليها بعدوة نهر شفندة في غيضتهِ فلما هجم الليل اقبل نحو المدينة بجنده وكانوا سبعمائة فارس وارسلت السماء برذاذ اخفي دقدقة حوافر الخيل فمكنهم ذلك من عبور نهر قرطبة ليلاً وقد غفل حرس السور فارتقاه بعض من جند مغيث وقتلوهم فدخلوا المدينة وملكوها عنوة . فبادر حاكمها الى الفرار في اصحابه وخرج الى كنيسة بغربي المدينة وتحصن بها فاقام مغيث على محاصرتها ثلاثة اشهر الى ان عرف موضع الماء الذي ينتابونه فامر اهل المعرفة بطلبهِ فقطعوه فايقنوا بالهلاك فدعاهم مغيث الى الجزية وهي قليلة او الاسلام [١] على ان يقبل في سلك الجندية كل من يعتنقهُ منهم مع اعطائهِ حصتهُ من الغنائم فابوا عليه شروطهُ [٢] ولذا اوقد عليهم النار فاحرقهم وسميت كنيسة القديس جورج الذي ثبتوا بها كنيسة الحرقى [٣]

---

(١) نفح الطيب الجزء الاول صفحة ١٢٣

(٢) Dozy الجزء الاول صفحة ٢٢٩ .

(٣) نفح الطيب الجزء الاول صفحة ١٢٣ Dozy الجزء الاول صفحة ٢٩٢

وقد جمع مغيث يهود قرطبة الى مدينتها وجعل لهم السلطة النافذة لثقته بهم

واما من وجه الى مالقه ففتحوها ثم لحقوا بالجيش المتوجه الى غرناطة فلم يلاقوا صعوبة في فتحها لان سكانها كان اكثرهم من اليهود وقد استقبلوا جيش المسلمين استقبالا حسناً ولكثرة عددهم فيها دعيت غرناطة اليهود [١]

وبعد ان فتح زيد غرناطه ذهب عن طريق جان ليلتحق بطارق ومن المهم ان نذكر ان المسلمين كانوا يضمون اليهود مع قطعة من المسلمين الى القصبة التي يفتحونها لحفظها واذا لم يجدوا يهوداً وفروا عدد المسلمين لحفظ ما فتح وصار لهم ذلك سنة في كل بلد يفتحونه [٢]

وقد اتم طارق سيره الى طليطلة محاذيا الوادي الكبير وقد اختارها القوطيون عاصمة لهم لتوسطها البلاد ومنعتها وهي مبنية على تلال سبع وتطل على نهر التاج

وقد كان من المنتظر ان يناجز الاسبانيول العرب في طليطلة بعد انخذالهم في وادي لكة اذ انها مجمع قواهم ولكن عظماءهم كان قد اسقط في ايديهم وعمهم الخوف ولذلك لم يفكروا الا بالهرب فاعتصموا بالجبال .

ولما اتى طارق الفاها خالية لكنهُ اشترط على من بقي منهم تسليم السلاح والخيول واذن لمن ود الرحيل عن المدينة بالمهاجرة على ان لا

---

(١) Coppée الجزء الاول صفحة ٢٩٤

(٢) نفح الطيب الجزء الاول صفحة ١٢٣

ياخذ من امتعتهِ شيئا اما من عزم منهم على البقاء فقد حفظت له املاكه وحريته الدينية ودفع الجزية وقد طلب منهم ان لايشيدوا كنائس جديدة دون استشارتهِ ولم يسمح لهم بالمظاهرات الدينيه اذربما انطوت على دسائس سياسية . اما نظاماتهم البلدية والقضائية فقد ابقيت كما هي (١)

ولما بلغ موسى بن نصير ماصنعه طارق بن زياد وماتيح له من الفتح تهيأ للمسير الى الاندلس وكان ذلك بعد ان مكن قواه في موريتانيا ومهد طرق المواصلات بينه وبين مصر وسوريا وجمع جيشا قويا للزحف به وكان دخول موسى الى اسبانيا في مارس او (ابريل) من سنة ٧١٢ (رمضان سنة ٩٣) اي بعد مرور سنة من قدوم طارق الى الجبل الذي دعي باسمه . اما جيشهُ فكان يتالف من عشرة آلاف من الفرسان وثمانية آلاف من المشاة وقد نزل بالجزيرة الخضراء

والحق يقال ان موسى بقدومهِ لم يفتح البلاد اذ ان طارقا كان قد بسط نفوذه عليها بل اكثر من الحامية ولذا نراه يقدم الى البلاد التي احتلها طارق قبله الا انهُ كان له الفضل في اخضاع اسبانيا الغربية والبورتغال .

وبعد ان احتل الجزيرة الخضراء سار الى شدونه وشريش وقرمونه ومضى بعدها الى اشبيلية فحاصرها وهي اعظم مدائن الاندلس شأنا واعجبها بنيانا واكثرها آثاراً وكانت العاصمة قبل ان دخل القوطيون اسبانيا الا انها ظلت مركز الرؤساء الروحيين فحفظت بذلك لها المكانة

---

(١) Histor. of the Dominion [illegible] the Arabs in Spain [illegible] Conde الجزء الاول صفحة ٦٤ (٢) الجزء الاول صفحة ٢٩٨

الدينية . ومما فاقت به على غيرها من نواحي الاندلس زراعة القطن فانه يحمل منها الى جميع البلاد الاسبانية والمغرب وهي على شاطئ نهر عظيم تسير فيه المراكب المثقلة يقال له الوادي الكبير [1]. فامتنعت اشهراً عليه ثم فتحها واكثر فيها من اليهود .

وبعد ان وطد النفوذ العربي في البلاد الغاضبة مما فتحه طارق سار الى اسبانيا الغربية والبورتغال وكان في زحفه على هذه الجهات يعتمد على فرسانه وقد احتل دون صعوبة Myrtiles و Assonoba و Sible و Beza [2] الى ان انتهى الى ماردة وكان اهلها قد صمموا على الاستماتة في دفاعهم ولم يلاق العرب بعد سقوط قرطبة دفاعاً مجيداً كدفاعها . وقد بنى ماردة اغسطس وفيها كثير من الآثار الرومانية منها قوس تراسان الذي دُعي بعد ذلك قوس سانت ياغو (يعقوب) وهيكلا مارس وديانا وملعب ماكسيمس والجسر الجميل البالغ من الطول نحواً من ٢٥٠٠ قدم والمبني على ٨١ قنطرة وكانت تلقب برومية [3] اسبانيا لها حصون منيعة وابراج عديدة واهلها ذو منعة وبأس شديد هاجمهم المسلمون مراراً الى ان اذعنوا . وذلك ان الجيش العربي المهاجم اظهر لهم هربهُ فلحقوا بهِ وكان الكمين العربي مترقباً لهم فاطبق عليهم وارتد الجيش الذي اظهر الهرب وفتك بهم فتكا ذريعاً . ومما جملهم

---

(١) راجع اشبيلية من كتاب معجم البلدان لابي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي

(٢) راجع خريطة اسبانيا

(٣) Coppe الجزء الاول صفحة ٣١١

يخضعون الامداد التي قدمت موسى وعلى راسها ابنهُ عبدالعزيز والجوع الذي بدأ يفتك بهم . وقد اشترط عليهم موسى تسليم السلاح والخيول وامتلاك اموال الخزينة العمومية والكنيسة والقتلى يوم الكمين والهاربين الى غاسقونيا . وامر ان يحوّل نصف عدد الكنائس الى مساجد .

وكان اشهر من أسر في هذه المدينة الملكة Exilona [1] ارملة رودريك «لذريق» وهي سيدة مغربية اسمها الحقيقي الياتا Elyata تزوجت فيما بعد عبدالعزيز بن موسى امير الاندلس ويدعوها العرب «ام عاصم» اما سقوط المدينة فكان في ١٠ تموز (يوليو) سنة ٧١٢

وبينا كان موسى يتقدم الى الامام ثارت اشبيلية وقتلت بعضا من جند العرب فاقتصّ منها عبدالعزيز وشدد النكير عليها وبذلك حفظت مؤخرة موسى من القلاقل ومن ثمة سار الى طايطلة فاستقبلهُ طارق في وجوه الناس الا ان موسى وبخهُ وعزلهُ لعدم اطاعتهِ اوامرهُ . ولم تكن نتائج تلك السياسة التي سار عليها طارق مما تحمد عقباه اذ جعل بين العرب والبربر فراغا واختلافات نمت بميكروب السيادة المتمكن من العرب أصحاب الدولة . ولكن الخليفة امره بان يطلق سراحهُ اذ لا يجوز في عرفه ان يُغمد سيف من سيوف الاسلام !

فاظهر الرضا عنهُ واقرّه على مقدمتهِ وامره بالتقدم امامهُ في جيوشهِ فارتقى جبال ..... زاحفا الى سرقسطه وهي اعظم مدن

---

(١) ، [ ] ، جزء اول صفحة ١٦٠ راجع ، upp ، ايضاً الجزء الاول صفحة ٣١٧

الشمال الشرقي من اسبانيا وقد اخذت اسمها من اوغسطس قيصر الذي شيدها وهي مبنية على ضفاف الابرو وتتشعب منها طرق المواصلات الكثيرة . وبينا كان طارق يحاصرها احتل موسى سلامنكا واستوركا Astorga وقد اتاها بعد ذاك منجداً طارقا في حصاره فافتتحاها واصرّ موسى على طلب جزية كبيرة دعاها الاسبان جزية الدم

وبعد ان خضدا شوكتها تفرقت جيوشهما فاحتل موسى المقاطعة الواقعة بين الابرو والبيرنيه وتدعى كتلونيا Catalonia [1] وبذلك تمّ له التسلط على لوبدة Lerida وبرشلونه Barcelona و Gerona و Huesca

اما طارق فاحتل طرطوشه Tortosa على الشاطئ الايسر من الابرو وبلنسيه Valancia وشاطبه Xativa و Denia وقد اوغلا في البلاد ولم يمرّا على موضع الا فتح عليهما وكان موسى يوثق للناس ما عاهدهم عليه طارق وكان يود لو يقتحم اوربا عن طريق الارض الكبيرة (فرنسا) حتى يتصل بالناس الى الشام لكن الخليفة امر برجوعه فحال دون ذلك الامل [2]

وقد استخلف موسى ابنهُ عبد العزيز على امارة الاندلس واقره بمدينة اشبيلية وركب البحر وطارق معهُ (في ذي الحجة سنة ٩٥ واغسطس سنة ٧١٣) وكان معهُ من السبي ما يقارب الثلاثين الف

---

(١) راجع خريطة اسبانيا

(٢) نفح الطيب الجزء الاول صفحة ١٣٠ ابن خلدون الجزء الرابع صفحة ١١٧ — ١١٨ LeBon جزء اول صفحة ٢٧٣ — ٢٧٤

راس [1] والمائدة المشهورة [2] التي كان يحمل فوقها مصاحف الاناجيل اذا ابرزت في ايام المناسك وهي مصوغة من خالص الذهب ومرصعة بفاخر الدر والياقوت والزمرد وقد اصابها الفاتحون بطليطلة وكان يظن ان لها قوة معنوية كتابوت العهد عند اليهود

وضبط عبد العزيز الاندلس بعد قفول ابيه وسد ثغورها واتم فتحها . وذلك انهُ سار الى مرسية Murcia الخصبة الجميلة وكان يدعوها العرب تدمير نسبة الى القائد الذي وقف مدافعا عن البلاد حين نزلوها وكان قد اشترك في معركة Guadalete الا انهُ هرب حين رأى ان لا مناص لقومهِ من الخذلان وقد ناوأ جند المسلمين لكن الهزيمة استمرت عليهِ في لورقا Lorca وغيرها من المدن . وكان تدمير هذا في قليل من اصحابهِ لا يغنون شيئا فامر النساء بنشر الشعور والظهور على الاسوار في مدينة اريوله Orihuela قصبتها متشبهات بالرجال وتصدرقدامهن باصحابه يغالط المسلمين في قوتهِ فتبعوا مراسه وعرضوا عليهِ الصلح واظهر الميل اليهِ واخذهم بالوفاء بعهده وادخلهم المدينة وسلمت المقاطعة كلها من ويلات الحرب ومعرة الفاتحين وصارت كلها صلحا ليس فيها عنوة [3]

قد كتبت المعاهدة (بين عبد العزيز بن موسى وتدمير) بالعربية واللاتينية وحفظت بتمامها في مكتبة الاسكوريال Escurial بمدريد

---

(١) ابن خلدون الجزء الرابع صفحة ١١٨

(٢) نفح الطيب الجزء الاول صفحة ١٢٧

(٣) نفح الطيب الجزء الاول صفحة ١٢٤

وهي تبين لنا التساهل الذي اظهره العرب ويقول المؤرخ غبون Gibbon انها محفوظة في الجزء الثاني صفحة ٦٠٦—٦٠٥ بالعربية واللاتينية من كتاب Bibliotheca, Arabico- Hispana

وهي تبتدئ بالبسملة ومن ثمة تنص على ان لايقاتل المسلمون تدمير ولا يسبوا نساء مملكته ولا يفصلوا زوجة عن زوجها او ولداً عن امه وان لايعارضوهم في دينهم ولا يحرقوا معابدهم بشرط ان يسلم مدنه السبع ويظل تدمير عاملا لعبد العزيز عليها وهي AlicantValentolo Orihuela Loroa Bejar, VacasoraMolo وان يدفع هو ومواطنوه ضريبة الاعناق وهي دينار على كل غني سنويا اما الفقير فنصف دينار وكان من الواجب ان يدفع اغنياؤهم اربعة مكاييل من القمح والشعير والعصير والخل والعسل والزيت وفقراؤهم نصف ذلك سنوياً وقد تم الاتفاق على هذه الشروط في الرابع من رجب سنة ٩٤ (٥ ابريل سنة ٧١٣) [١] وقد وقع عليها اربعة من افاضل المسلمين كشهود على المتعاهدين وهم عثمان بن ابي عبده وحبيب بن ابي عبيده وادر يس بن ميسرة وابو القاسم الموصلي

حقاً ان هذه الشروط خفيفة الوطأة خصوصا في مقاطعة مرسيه الملقبة بجنة اسبانيا الخصيبة . حيث ينبت الزرع دون نصب لجودة الارض وكرم السماء [٢]

---

(١) Decline and Fall of the Roman Empire .E.Gibbon الجزء الخامس صفحة ٣٧٢ Cp. Condé الجزء الاول صفحة ٣٣٠ الجزء الاول صفحة ٧٦ — ٧٥

(٢) يقول المثل الاسباني « القمح في اريولة أمطرت ام لم تمطر » Coppée صفحة ٣٣١ من الجزء الاول

وكان عبد العزيز من خير الولاة اذ هدأ البلاد بتساهله وحلمه الا ان مدته لم تطل للنكبة التي انزلها الخليفة سليمان بن عبد الملك بابيه واهله وذلك لما كان له من النفوذ في افريقية والاندلس اذ استخلف على طنجة وما يليها من المغرب ابنه عبد الملك وبافريقية عبد الله فصار جميع الاندلس والمغرب بيد اولاده . وقال آخرون ان موسى قدم على الوليد وان سليمان ولي العهد لما سمع بقرب موسى من دمشق وكان الوليد مريضا امره بالتربص رجاء ان يموت الوليد قبل قدوم موسى فيقدم هذا على سليمان في اول خلافته بتلك الغنائم الكثيرة فيستبشر الناس ويعظم مقام سليمان عندهم فابى موسى من ذلك وجد في السير حتى سلم الوليد الاخماس والمغانم فلم يمكث الوليد يسيراً بعد قدومه حتى توفي فحقدها عليه سليمان واهانه واغرمه امو الا طائلة ودس الى اهل الاندلس بقتل ابنه فوثب الجند به بقيادة رجال سليمان واعدموه[1] ومقتله من نوع التراجيديا وكان له صدى مؤلم في الاندلس باجمعها

وقد مات موسى بن نصير وهو في منفاه بوادي القرى من افقر الناس يطلب الرحمة من الموكلين به ليخففوا عنه العذاب . وهكذا قضي القائد الذي بسط نفوذ الدولة في اسبانيا وافريقية ذليلا مهانا

ولم يكن افتتاح العرب اسبانيا من المصائب على اهلها مع كل ماتأتي به الحرب من الويلات . اجل كانت الفوضى ضاربة اطنابها عند ابتداء الفتح وقد احرق المسلمون بعض المدن واعدموا كثيراً من النبلاء

---

(١) نفح الطيب الجزء الاول صفحة ١٣١

ولكن الحكومة العربية بعد ذلك وطدت اركانها واصلحت خطأها واقرت السلام في الربوع وضربت بعصا من حديد كل من ارتكب هذه المظالم وذلك ماجعل الاسبان يقبلون حكمهم دون تذمر. شكوى وقد وجدوا فيه التساهل الذى طالما نشدوه اذ ابقوا لهم شرائعهم وقوانينهم وقضاتهم وعينوا عليهم حكاما من انفسهم يناظرون الضرائب التي وجب دفعها للخزينة [١]

وقد ظل العبيد فى جميع الاقطاعات التي اختصها العرب بانفسهم واغلبها مما يخص الكنيسة والنبلاء والفارين الى الشمال وما افتتحوه عنوة وكانوا يفلحونها ويعملون فيها ويعطون اسيادهم العرب اربعة اخماس محصولاتها ويأخذون لانفسهم الخمس الباقي

اما اراضي الحكومة فكانت تؤلف الجزء الخامس من جميع المقاطعات التي وضع المسلمون ايديهم عليها. وكان من يعمل فيها من العبيد يدفعون للخزينة ثلث المحصولات فحسب ويأخذون لانفسهم الثلثين الباقين. ولما كثر عدد المهاجرين من العرب الى اسبانيا صار العبيد يدفعون الثلث لهؤلاء المهاجرين بدلا من الحكومة وذلك حسب ما اقتضته ادارة الحكومة نفسها بتقسيمها لهم. وكان العبيد الذين يعمرون الارضين لبيت مال المسلمين يعرفون بالاخماس واولادهم ببني الاخماس [٢]

- واما سائر النصارى فكانت تتوقف حالتهم على المعاهدات التي عقدوها مع العرب وكان اكثرها يحفظ لهم مصالحهم. فاهالي ماردة

---

(١) Histoire des Musulmans d'Espagne الجزء الثانى صفحة ٣٨

(٢) Recherches sur l'Histoire et la Litterature de l'Espagne. Appendice, No.1

الذين بقوا في المدينة حفظت لهم جميع املاكهم كما ابنا قبلا الا انهم اجبروا على تسليم اموال الكنيسة . لكن تدمير اومرسية التي تضم كثيراً من المدن فلم يدفع مسيحيوها شيئا البتة وقد اصابهم الجزية فحسب وهي مما وجب دفعهُ على جميع الذميين . وعلى العموم فقد حفظ المسيحيون جميع املاكهم واذن لهم بحق التصرف بها من بيع او شراء وهذا حق لم يتمتعوا به في ايام القوط

وكان عليهم ان يدفعوا ضريبة الاعناق السنوية وهي ثمانية واربعون درهما على الغني واربعة وعشرون درهما على متوسط الحال واثنا عشر درهما على العمال والصناع وكانت تدفع على اثنى عشر قسطا اي في اواخر كل شهر قمري كان يسدد قسط . وقد اعفي من دفعها النساء والكهنة والضعفاء والاطفال والعبيد وذو والعاهات [١] وهذه الضريبة تسقط عمن يسلم .

اما الخراج وهو عشرون بالمائة من محصولات الارضين فذا واجب دفعه على المسلمين والمسيحيين سواء ولا يسقط باسلام احد .

وما كانت الحكومة لتجبر احداً على اعتناق الاسلام بل قد خسرت خزينتها اموالا طائلة لكثرة من دان به فسقطت عنه ضريبة الاعناق

ومن حسنات الفتح العربي الثورة الفكرية الاجتماعية وهذه ذهبت بكثير من العادات البالية والتقاليد القديمة التي ناءت اسبانيا تحت اعبائها اجيالا طويلة . فتلكم القوة التي كانت للنبلاء والكهنة كادت

---

(١) Histoire des Musulmans d Espagn الجزء الاول صفحة ٤٠

تصبح كلا شئ اذ ان الحكومة وضعت يدها على ما كان لهم من الاقطاعات الكثيرة وفرقتها بين اناس عديدين وبذلك قلت املاكهم وجعل للزراعة يداً قوية كانت تعمل لغيرها فاصبحت تنتج لنفسها

ومن حسناته ايضاً سعادة العبيد وهم سواد الشعب الاعظم وقد كانوا يعتقون بعد ان يخدموا سنوات قليلة اذ ان من اعتق عبداً في الاسلام كان يثاب ويعد عمله مبروراً مشكوراً

وقد اعتنق اكثرهم الاسلام وذلك لان المسيحية لم تكن متمكنة منهم لتعلقهم بوثنيتهم القديمة ومعتقد المسيحية كان على شفاههم اكثر منه فى صدورهم (1)

اما وقد اتينا على حسنات الفتح فلنذكر الان سيئاته ان اردنا العدل في حكمنا

ان الحكومة العربية صرحت علنا بحرية الاديان ولم تضغط على احد من هذا القبيل ومع كل ذلك فالكنيسة المسيحية كان يرجع امرها الى السلطة العربية فكهنتها تعزلهم وتوليهم الحكومة ان شاءت وهكذا المؤتمرات الدينية فما كانت لتعقد الا باذن منها

ولما وطد العرب اركانهم في اسبانيا جعلوا لايعباون بالمعاهدات التي عقدوها مع المسيحيين ولا ينظرون اليها نظرهم اليها حين ابتداء الفتح ففي قرطبة عقدت الحكومة معاهدة مع مسيحيها تنص على حفظ كاتدرائية مار منصور Saint Vincent لهم ولكن حين كثرت

---

(1) Histoire des Musulmans d'Espagne ص ٤٥

المهاجرة السورية الى قرطبة جعل العرب نصفها جامعا المسلمين وهذا طبعا غير ما نص عليه المعاهدة

وحين اراد عبد الرحمن الداخل سنة ٧٨٤ اقتناء النصف الآخر من الكاتدرائية اصر على ذلك ودفع لهم ثمنها مائة الف دينار واذن لهم في تشييد كنائسهم المهدومة . ان عبد الرحمن لم يغبنهم بل كان عادلا في الثمن الذي دفعهُ لكنهُ بعد ذلك حجز املاك ارطباس احد ابناء غيطشة بحجة انها كثيرة على اسباني واحد وكان طارق قد عاهده على حفظها وثبت ذلك الخليفة نفسهُ

أجل ان الفتح كان برداً وسلاما على الامة الاسبانية اذ كفاها آلام الاضطهاد وخلصها من كابوس الموجات الجرمانية المؤلم



الفصل الثاني

عبد الرحمن الداخل [1]

حكم من (٧٥٦ - ٧٨٨ م)

ان اركان الدولة الاموية توطدت في اسبانيا وخفق علمها على ارجائها بمساعي القادة موسى بن نصير وطارق بن زياد وعبد العزيز بن موسى الذين وحدوا القوى البربرية والعربية والقوطية واستفادوا من الفرص التي بها جعلوا عرى الوفاق متينة بما اظهروه من الحنكة في تساهلهم مع اهل البلاد ومناصرتهم شعوبها المضطهدة ورفعهم مستوى الفلاح والعبد والصانع الذين يكونون اكثرية السكان . لكن بعد مصرع عبد العزيز بن موسى ثارت في رؤوس زعمائها نشوة الرئاسة ورجعت العصبية الحزبية فانقسموا الى يمنيين ومضريين وفهريين وازدادت نفرة البربر فاخذوا يشعرون بوطأة الارستقراطية العربية وشدتها وكان ابتداؤها السياسة العنيفة التي جرى عليها موسى يوم عزل طارقاً واهانهُ . ان البربر اخذوا يشعرون بوحدتهم القومية التي تجلت

---

(١) سمي بالداخل تمييزاً له عن عبد الرحمن الثاني المدعو بالاوسط وعن عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر وهو اول من دخل الاندلس من العائلة المالكة الاموية

فيما بعد باجلى مظاهرها فى اواخر الدولة الاموية بقرطبة (١٠٣١ م)

نعم ان اسباب الضعف كانت متمكنة حين التأسيس فبعد مركز الخلافة عن الاندلس وتعدد من تسنم عرشها لامد قصير وكثرة من ساد من الولاة على القيروان اولئك الذين كان يرجع اليهم تعيين حاكم الاندلس، كل ذلك منع الدولة من ان تسير حسب سياسة واحدة بينة عادية لا تغيير فيها.

وكان امر بني امية فى المشرق قد ضعف وشغلوا عن قاصية الثغور والممالك التي سادوها لعظم امر الخوارج وانتشار دعوة العباسيين التي قامت على سيوف الاعاجم فبقي امر الاندلس فوضى لا نظام في الربوع ولا سلام في الديار واستفحل امر الجند فيها فاخذوا يولون ويعزلون، ينهون ويأمرون ولا من زعيم تلتف حوله الجماعة. ومتى كان الجند قابضا على زمام الامور فالراحة معدومة والارهاب مسيطر والفوضى ضاربة اطنابها اذ لا تجري الامور فى مجاريها الا متى كان هناك حكومة مدنية لها قوانين اساسية تربطها فلا تجور على البلاد القوى العسكرية.

فاتفق الجند على اقتسام الامارة بين المضرية واليمنية واداالتها سنة لكل من الحزبين [1] فقدم المضرية على انفسهم الزعيم يوسف بن عبدالرحمن الفهري واستقر سنة ولايته بقرطبة غير انه حين انقضت مدته استبد بالامر ولم يوف اليمنية لميعاد ادالتهم يوم اتوه واثقين بمكان

(١) ابن خلدون الجزء الرابع من كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر .. صفحة ١٢٠ المقرى الجزء الاول صفحة ١١١

عهدهم واتفاقهم فاظهروا الاستكانة وتربصوا الدوائر ليفتكوا به وليتحدوا مع اعدائه عليه .

بينا كان الامويون فى الغرب يتنازعون ويحصدون الرؤوس التي تقف فى طريقهم من اجل السلطة ، بينا كانت اسبانيا لا تزال تئن من ويلات المعارك التي يأتي بها كل فتح غالبا ويهلكها الجوع الذى سطا عليها ، كان يُضطهد هؤلاء الامويون فى المشرق ففي سنة ٧٥٠ قتل مروان الثانى آخر خلفائهم فى مصر واسلمهم العباسيون للسيف والنطع وكالوا لهم من المظالم والعذابات اشدها لكن متى تجاوز الانتقام حدوده ضعف امره ولم يجن صاحبهُ ثمراً . وهكذا لما طلب بنو العباس الامويين فى كل صقع اتيح لكثير منهم الهرب والاستخفاء في الصحراء عند القبائل البدوية لقرب الشام من اطرافها (٢)

ولما رأى بنو العباس ان لا سبيل الى اعدامهم الا بالحيلة والمكر امنهم السفاح وبذلك اصطاد ما يقارب السبعين منهم وقتلهم جميعا غير انه نجا من هذه المكيدة شاب اسمه عبدالرحمن لا يتجاوز العشرين ربيعا عيناه زرقاوان وشعره اشقر جميل (٣) هو حفيد الخليفة هشام . فهرب ولم نزل يسير من مكان الى آخر حتى حلَّ بقرية على الفرات ذات متجر وغياض يريد افريقية لكن ابو سلمى وزير السفاح العباسي بث في اثره العيون وبعث بالاوامر المشددة الى جميع حكام الولايات بالقبض عليه .

---

(٢) liHistore des Musulmans d'Espagne, Dozy الجزء ١ ص ٢١٧/٢٩٨

«٣» History of the Conquest of Spain by the Arab–Moors, Coppe الجزء الثانى صفحة ٧٩

وانه لجالس يوما في تلك القرية في ظلمة بيت لرمد اصابة وبكر ولده سليمان يلعب قدامه وهو يومئذ ابن اربع سنوات او نحوها اذ دخل الصبي من باب البيت فازعا باكيا مضطربا فخرج ابوه ليعرف ما الخبر فاذا بالروع قد نزل القرية والرايات السود منتشرة في اطرافها فهاله الامر وسار مع اخ له حدث السن طالبا النجاة بعد ان امر اخواته ان يلحقن به ومعهن بدر مولاه الى مكان مقصده وما هي الا ساعة حتى اقبلت الجنود واحاطت الدار فلم تجد اثراً له. ثم مضى ليبتاع ما يصلح لسفره لكن عبد سوء امره عبدالرحمن باقتناء حوائجه دل عليه فاشتد في الهرب مع اخيه وسبق الجند اللاحق بهما الى الفرات ورميا بنفسيهما فيه والخيل تناديهما من الشاطئ ارجعا لا بأس عليكما وكان عبدالرحمن ماهراً في السباحة الا ان اخاه قصر واصغى اليهم فناداه « تقتل يا اخي الي، الي » اما اخوه فاغتر بامانهم وخشي الغرق فانقلب اليهم وهنالك على الضفة ضربوا عنقه وعبدالرحمن ينظر اليهم ، يرى دماء اخيه ويسمع استغاثته ونفسه متألمة حزينة. انه حمل فيه ثكلا ملأه خوفا ورعبا فسار الى غيضة توارى فيها حتى انقطع الطلب [1]

سار عبدالرحمن يطلب افريقية فكان رفيق البدو في رحلاتهم وسمير الرعاة في طلبهم الماء والكلأ لا يغمض له جفن الا قليلا حتى وصل الى فلسطين حيث التقى ببدر مولاه ، فصر فبرقة وهنا تمكن من الهرب بعد ان احتاط ابن حبيب حاكمها للقبض عليه وكان هذا من

---

(١) المقري الجزء الثاني صفحة ٦٢ — ٦٣ نقلا عن الاخبار المجموعة صفحه ٢٩٩-٣٠٢ من (1) تذ الجزء الاول . وراجع الفصل السادس عشر من الجزء الاول ايضاً

صنائع بني امية غير انه خضع للنفوذ العباسي . فخلص الى بني رستم ملوك تاهرت وقد اكرموه اكراما عظيما وتقلب على قبائل البربر الى ان استقر عند اخواله بني نفزة الذين يسكنون بالقرب من سبتة

عبد الرحمن الشاب كانت تجول في صدره آمال كبيرة ويفكر بمطامع عظيمة . ان كبر همته وشجاعته ومزاياه اكسبته ثقة بنفسه جملته يعتقد بانه خلق للعظام من الامور . وكان يتوسم فيه ذلك عمه الاكبر مسلمة . كانت نفسه تصبو الى العلاء والنفوذ ولكن عرش امية كان قد دك دكا في الشرق وكان هناك في العدوة الاسبانية عرش سالت من اجله الدماء لم يتسنمه رجل ذو شخصية كبيرة لها في النفوس تأثيرها فبعث بدراً مولاه الى المروانية بالاندلس وهم يؤلفون فرقتي دمشق وقنسرين وعددهم يتراوح ما بين الاربعمائة والخمسمائة وقد وصف في كتابه الى قادتهم الحال التعسة التي لاقاها الامويون في كل انحاء المملكة العباسية والسنين الخمس التي قضاها وهو شريد طريد ويعرفهم مكانه من السلطان وسعيه لنيله اذ كان الامر لجده هشام فهو حقيق بوراثته ويتلطف في ادخاله الى الاندلس ليعيش بين قومه وعشيرته ويعدهم بالمراتب العالية والمناصب الفخمة ثم يشير اليهم بمن يأمنونه ويرجو مناصرته وجمع كلمة اليمنية حوله اولئك الذين لهم على المضرية المتنفذين احقاد .

وقد كان من المخلصين لامية ابو عثمان عبيد الله وعبد الله بن خالد وجملة طيبة من الضباط والجنود فاجتمع نحو ثمانين (١) من كبار المسلمين

---

(١) راجع Coppe ٨٥ — ٩١ من الجزء الثاني . مؤتمر الثمانين صفحة ٨٩ History of the Dominion of the Arabs in Spain Conde الجزء الاول صفحة ٦٦ الى ١٧٠

الشاميين وعقدوا مؤتمراً قرروا فيه ان يولوا زعامتهم رجلا يدير دفة البلاد بحزم كيما يرجع الامن الى نصابه. انهم كانوا يتالمون من المظالم والاحن التي كانت تنزل بالبلاد على ايدي افراد قلائل دون ان ياخذ العدل مجراه للبعد الشاسع الذي كان يفصل الشرق عن اسبانيا. ان بعد المسافة والوقت الطويل يلونان الحقيقة الناصعة ويزينانها ولذا كانت احكام العدالة في حيز العدم.

وبكلمة وجيزة كانت مطالبهم تنحصر في نقطتين اساسيتين وهما اولا تاسيس حكومة يرأسها رجل قوي عادل يضع حداً لتخاذل الزعماء. ثانيا انفصال اسبانيا عن المملكة الاسلامية في الشرق لانه في وسعها ان تسير الى الامام بخيراتها الوفيرة ومواردها الغنية [1].

اما الرجل الطموح فكان بدر قد نشر له في الاندلس ذكراً وبث له دعوة [2] بين الموالي المروانيين فقرروا ارسال وفد على راسه تمام ابن علقمة الى افريقيا ليحمله اليهم فركب عبد الرحمن البحر من مغيلة ونزل في المنكب Almunecar حيث استقبله القائدان ابو عثمان وخالد وذلك في مايو سنة ٧٥٦ وكانا قد هيجا احقاد اهل اليمن على مصر فوجدا فيهم ارضا خصبة للانتقام اذ اوغرت صدورهم باحقادهم المتأصلة فيهم.

وقد سرت في الجيش دعوته وسارع عدد كبير الى البدار لعبد الرحمن ونادوا بشعاره واغلبهم من اليمنيين وبعض من قبائل البربر الذين

---

(١) Coppée الجزء الثاني صفحة ٩٠ و Conde الجزء الاول ١٦٨

(٢) ابن خلدون الجزء الرابع صفحة ١٢١

اتوا اليه من زناته ومكناسه فشرع بالمسير نحو قرطبة .

ان جند يوسف كان كتلة واحدة من العرب الذين رضوا عن سياسته لعدم تشامخه عليهم ومشاركته اياهم فى استقلالهم لكبر سنه وضعفه الا انهم كانوا متخاذاين بعضهم مع بعض تاكل الضغينة صدورهم ولذا صعب ان يقاوموا مطامع الشاب عبد الرحمن الطموح فسار الى مقاطعة ريه Regio حيث انضمت اليه فرقة ارشيدوناو من ثمة اتى شدونا مقر فرقة فلسطين فاشبيلية حيث استقبلته فرقة حمص واليمنية بقيادة ابن الصباح . اجل لقد هرعت اليه قبائل سورية ومصر لتقاتل تحت لوائه كما ان مدنا كثيرة ارسلت اليه شعراءها وفتحت له ابوابها لما كان يؤمله اهل البلاد من السلام والرخاء ايام دولته . بعد ان توالت المجاعة قبل ذلك ست سنين اورثت الاندلس ضعفا [1]

ولما علم يوسف بقدوم ابن معاوية جمع جموعه من ماردة وطليطلة وبلنسيه واشار عليه الصميل بمهاجمته قبل ان يكثر جنده وتصلح حاله ان امده بالوقت الكافي غيراه صمم على الذهاب الى قرطبة اولا لانها مركز الذخائر والمؤن وحين وصل اليها كان ابن معاوية قد دخل اشبيلية واتجه نحو قرطبة ايضا للسبب نفسه محتذيا الضفة اليمنى من الوادي الكبير الى ان وصل الصحراء الصارة غربي قرطبة وهناك تواجه الجيشان لا يفصل بينهما غير الوادي الكبير.

وقد كان كل من الاميرين يسعى للانتصار جهده فيوسف ان

---

(١) المقرى الجزء الثانى صفحة ٦٥

خذل كانت الضربة قاضية على اماله وامانيه. اذ ذاك يجعل الثوار في الشمال اقوياء الشكيمة عدا عن الثقة التي يخسرها وهي من اهم العوامل للنجاح . اما عبد الرحمن فان قلب لهُ الدهر ظهر المجن رجع الى حاله الاولى شريداً طريداً لا حزب يعضده ولا ذخيرة يعتمد عليها ولذا جعلا يتخابران ويتراسلان ليخدع كل منهما الآخر. فعرض يوسف على عبدالرحمن يد ابنته [1] واملاك جده هشام في الاندلس وقد ظهر الاخير الرضا عن الشروط واحتال بنقل جنوده الى الضفة الثانية لكي لا يفصل بينهما بعد ذلك فاصل وتاكيداً لذلك فقد طلب منه ان يمده بالمؤن كاللحوم وغيرها ففعل ووقع يوسف في احبولة عبد الرحمن معتقدا انهُ قد ارجع الامور الى مجاريها دون ان تهرق الدماء لكنهُ لم يكد يبزغ فجر اليوم التالي ١٤ مايو الا واجبره عبدالرحمن على قبول معركة فاصلة يناجزه اياها فهزمت فرسانهُ الجناح الايمن والقلب وثبت الجناح الايسر من جند يوسف بعد ذلك قليلا .

ان معركة صحراء الصارة جعلت عبد الرحمن سيد قرطبة ولكنها لم تجعلهُ امير اسبانيا قاطبة لان يوسف التجأ الى طليطلة واتحد مع الصميل الذي قاد فرقة جاين واسترجعا العاصمة حين اخلاها ابن معاوية لمنازلتهما ثانيا لكن كان قد فشل امرهما فطلبا الصلح بشرط ان تحفظ لهما املاكهما فقبل عبدالرحمن ما عرضاه عليه واخذ ابني يوسف رهينتين عنده وحين رجع عبد الرحمن الى قرطبه رافقهُ يوسف

---

(١) Dozy الجزء الاول صفحة ٣٣٤

والصميل وبذلك اعترفت بهِ اسبانيا اميراً لها (يوليو سنة ٧٥٦)[١]

لـكن النبلاء الفهريين والهـاشميين والقرشيين والبلديين [٢] ممن ضعفت سلطتهم واذلتهم السيادة الجديدة جعلوا ينفخون في بوق الفوضى ويشجعون يوسف على العصيان فهرب الى ماردة ونكث عهده واجتمع اليهِ عشرون الفا من اهل الشتات فعظم شانهُ وخرج لمحاصرة اشبيلية غير ان حاكمها عبد الملك بن عمر بن مروان كسره وشتت شمله واحتز راسهُ بالقرب من طليطلة ومن ثمة قتل عبد الرحمن ولده ابا زيد

وحكم على ابي الاسود ابنهِ الآخر بالسجن المؤبد . ومما يذكر ان الصميل لم يشترك في الثورة ومع ذلك فقد اعتقلهُ عبد الرحمن واوعز بخنقه

بينما كان ابن معاوية يوطد نفوذه في الغرب ويهتم بفصل الاندلس عن سلطة الخلافة وجعل قرطبة بلدا وسيما عظيم الشان كان الخليفة ابو جعفر المنصور العباسي (٧٤٥ — ٧٧٥) يخاف ان تزاحم الاندلس سلطانهُ ولذا امر والي القيروان العلاء بن المغيث اليحصبي ان ينزل بالاسطول الشاطئ الغربي من اسبانيا ليعين الثائرين واكثرهم من اصحاب المطامع من فل جيوش يوسف الفهري والبربر وان يعلن ان

(١) Dozy I الجزء الاول صفحة ٣٥٧

(٢) البلديون هم الذين قدموا الاندلس من العرب قبل الشاميين والداخلون بعد ذلك على موسى بن نصير وغيرهم ممن اتى مع بلج بن بشر القشيرى يسمون بالشاميين الاحاطة في اخبار غرناطة للوزير لسان الدين الخطيب صفحة ١٧

خليفة رسول الله واحد وجبت الطاعة له . وبعدان نزلها ثار بباجة (٧٦٣ م) ودعا اهلها ومن حولهم فاستجاب له الفهريون وحاصروا عبد الرحمن بقرمونه Carmona لكنه هاجمهم فهزمهم وقتل من دعاة العباسيين ما ينيف على سبعة آلاف وارسل رؤوس كثيرة منهم الى مكة ايام موسم الحج . ولما نمي الى المنصور ما حل بالمغيث وجنده صرخ «الحمد لله الذي بيننا وبينه البحر» [1]

ان اهمية هذا الانتصار كبيرة اذ جعلت العباسيين ينظروا الى الاندلس بعين الرهبة والنظر الى النظير وفي ذلك ما فيه من اعترافهم باستقلال الاندلس عن المملكة العباسية في المشرق وان لم يعترفوا بذلك رسميا

وقد كان نجاح عبدالرحمن يرجع الى سببين اولهما تفرق كلمة هؤلاء الزعماء وعدم اشتراكهم يدا واحدة من اجل مقصد واحد وثانيهما سياسة عبد الرحمن الرشيدة الصائبة وحركته المتواصلة وعقابه الشديد فانه حين ثار ابن الصباح زعيم اليمنيين طالبا ان يكون الامر لعشيرته فتك به في قصره بقرطبة بعد ان وبخه . يدلنا على مارب ابن الصباح هذا قوله بعد الانتصار في معركة الصارة وهو «يامعشر يمن هل لكم الى فتحين في يوم . قد فرغنا من يوسف وصميل فاننقتل هذا الفتى المقدام ابن معاوية فيصير الامر الينا نقدم رجلا منا ونخل عنه المضرية» [2] فتدارك عبد الرحمن امر بنفوذه واسرها بنفسه الى ان اغتاله

(١) المقرى الجزء الثاني صفحة ٦٧ (١) الجزء الاول صفحة ٣٦٧ (١) الجزء الاول صفحة ٣٩٩ ٤٠٠

(٢) المقرى الجزء الثاني صفحة ٦٦ (٢) الجزء الاول صفحة ٣٧٠ ترى خبر ابن الصباح

لم يكد الامير الشاب يدرأ ثورة اليمنيين حتى قام البربر بقيادة احد معلمي الصبيان المسمى شاقية ويدعوه ابن خلدون شقنا [١] يضربون في البلاد الفوضى وقد ادعى انه من نسل الحسين بن فاطمه وتلقب بعبدالله بن محمد وكان مركزه بين التاج والكوادايانا Guadiana أنه في اول امره نجح نجاحا باهرا ومما يذكر انه احتل مارده وكوريا وسنتبريا Meddeliu, Coria, Sontebria وكسر الجيوش التي نازلته لاديبه واخضاعه . اما حصنه الحصين فكانت الجبال اذ هي ملجأه حين حاول عبدالرحمن مناجزته وقد ظلت ثورة البربر هذه مشتعلة نحوا من عشر سنين ولم تخمد الا بقتل شاقية غيلة قتله احد رجاله

ان الثورات التي قضى عبد الرحمن معظم عمره في اخمادها هي على انواع ثلاثه النوع الاول ينحصر في القلاقل التي حدثها حزب يوسف واشياعه والثاني في المطامع والمصالح التي كانت تخص بزعماء الاحزاب والقبائل والثالث وهو النوع الغالب في الدعوة للخليفة العباسي وكانت اشدها خطراً . ومن هذا القبيل الاخير المعاهدة التي قضت على سليمان العربي حاكم برشلونة وعبد الرحمن بن حبيب الفهري الملقب بالصقلبي وابى الاسود ابن يوسف الذي تم له الفرار من السجن ان يتحدوا و يطلبوا مساعدة شارلمان الكبير وذلك أنهم ذهبوا فى سنة ٧٧٧م الى بادربورن Paderborn [٢] وعقدوا المعاهدة الدفاعية الهجوميه ضد عبدالرحمن

---

(١) ابن خلدون الجزء الرابع صفحة ١٢٣

(٢) [illegible] الجزء الاول صفحة ٢٧٧ و [illegible] الجزء الثانى صفحة ١٢١ و Scott الجزء الاول صفحة ٤٠٣

وقد اعلنوا الطاعة للخليفة العباسي حتى ان الصقلبي حمل رايات المسودة وان اضمروا ما ينزعون اليه حقيقة من حب الاستقلال

وكان شارلمان هذا امبراطوراً للمملكة التي امتد سلطانها على فرنسا والمانيا وايطاليا وهو من العائلة (الكارلوفنجية) Carlovingiai وابن بن Pippin وحفيد شارل مارتل . وجل ما يرمى اليه ان يجعل تحت نفوذه المملكة الرومانية فغزا بين سنة ٩٦٩ عام و٧٧٨ اكويتانيا وحمل حملات شديدة على السكسون واللمبارديين لكنه كان ينظر الى اسبانيا نظر المتحين الفرص حتى لا يجيء من العرب عدواً لدوداً يهدد امبراطوريته ويتخطى البيرنيه كما فعلوا ايام جده شارل مارتل لاسيما والشعوب التي تتألف منها مملكته كامثال السكسون والهون والسلاف واللمبارديين اقوام شديدو المراس لا يخضعون الا لليد القوية الشديدة وذلك مما لا يتسنى له ان لم يؤمن حدوده الجنوبية واعني بها البيرنية . على انهُ كان هناك ايضاً عامل آخر دفعهُ على التعاقد مع الثائرين وهو حفظ النصرانية في اوربا من دين جديد بدأت طلائعهُ تسري في اسبانيا [1] ولذا صمم على ان يجعل قسماً من النافار وكاتلونيا والارغون حداً اسبانياً Spanish March او دويلات حرة يحكمها اصدقاؤه الثائرون برعايته .

ففي ربيع سنة ٧٧٨ اخترق شارلمان البيرنيه عن طريق المضايق التي يطلق عليها اسم Roucesvaiics وقد ظل زاحفاً الى ان اتى بامبلونة فاحتلها دون مقاومة ولكنهُ لم يكد يصل الى سرقسطة بجيوشه

---

(١) Coppe الجزء الثاني صفحة ١٢٣ — ١٢٤ Scott الجزء الاول صفحه ٤٠٣ — ٤٠٥

الا واقفل المسلمون بقيادة حسين بن يحيي ابواب المدينة [١] وهي مركز حربي كبير اذ منها تتشعب طرق المواصلات الى الانحاء المختلفة فعبد الرحمن كان ينظر اليها كجزء متمم لمملكته الاسبانية وشارلمان يرى فيها المحطة التي يهدد بها اسبانيا ويضربها. لكنه لم يكد يحاصرها حتى وافته الاخبار بثورة السكسون يقودهم وتكند Wittekind [٢] وتقدمهم الى Dentz تجاه قولون فاجبر على التقهقر من الابرو الى الرين بحال تعسة والبشكنس Basques كانوا قد كمنوا له في الحراج والمنعطفات الصخرية وهاجموه فافنوا مؤخرة جيشه عن بكرة ابيها وكان يقودها رولاند. وممن حمل ايضا على جيشه غاسقونيو فرنسا واسبانيا وجند بلاي Pelayo القائد الذي اسس بشرذمته الصغيرة في ضواحي Covadongi القوة الاسبانية التي استردت من العرب الاندلس وطردتهم منها فيما بعد. وكانوا يرمونهم بالصخور والحجار الضخمة ويقول كوبه Coppe [٣] ان بعضا من القوى العربية ساعدت على هلاكهم.

ان اسم رولاند خالد لما صيغ فيه من جميل الشعر والخيال في بطون الكتب الادبية الاوربية ولا شبهة ان اخباره فيها شيء من الغلو الوصفي الروائي مما لا يقبله التاريخ.

وكان عبد الرحمن يشاهد عن بعد تمثيل المأساة التي اتى بها شارلمان الا انه سار اخيراً الى سرقسطه واخضعها وقتل الحسين بن يحيي الذي

---

(١) Dozy الجزء الاول صفحة ٣٧٩

(٢) Huart Histoire des Arabes الجزء الثاني صفحة ١٤٧ Dozy الجزء الاول صفحه ٣٧٩ (٣) Dozy صفحة ١٣٥ — ١٣٦ الجزء الثاني

حدثته نفسه بالوثوب اما الثائرون فقد اختلفوا بعضهم مع بعض ففتك ابن الغربي بالصقلبي كما ان الاول مات مقتولا فى جامع سرقسطه .

ونتيجة هذه الحملة ان شارلمان اسس التخم الاسباني الذي تاقت نفسه اليه وكان يضم البلاد الواقعة على جانبي البيرنيه وهي تقسم الى مقاطعتين كبيرتين غاسقونيا وسبتمانيا Septemania

ولما كانت فوضى الاحزاب قد تفاقم ضررها صمم على اخفاتها واضعاف سلطتها ونفوذها فاحسن الى العوام ودعا الموالي وجمعهم حوله واتخذ المماليك واعتضد بالبربر فاحسن لمن وفد عليه من افريقية احسانا كبيراً وجعل منهم جيشا يتراوح بين الاربعين الفا والمائة الف (١) حين الحاجة الشديدة . وكان اخلاص هذا الجيش شخصي اكثر منه قومي لانه صنيعة عبد الرحمن فباسمه كان الجند يدافع لا باسم البلاد وظل مدة ثلاثين عاما وهو يحاول اصلاح اسبانيا وجمع كلمتها داخليا والاعتراف بقوتها فى الخارج فنجح وثبت امام رجلين خضع لسلطانهما العالم المعروف يومذاك وهما شارلمان وابو جعفر المنصور. واسس مملكة مطلقة قسمها الى ست مقاطعات يحكم كلا منها امير عسكري وكان يعضده فى اموره القضاة والولاة ويرسلون تقاريرهم الى الديوان بقرطبة (٢)

---

(١) المقرى الجزء الثانى صفحة ٦٧ Dozy الجزء الاول صفحة ٢٨٨ Copp الجزء الثانى صفحة ١٥٢

(٢) Scott الجزء الاول صفحة ٤١٠

لقد صرح دوزى وكوبه والمقرى وسكوت ان جيش عبد الرحمن كان نحواً من اربعين الفاً ويزيد على ذلك المقرى وكوبه انه كان يجاوز المائة الف احيانا وهذا طبعاً ايام الحروب

اما البريد فقد جعل له محطات و فرسانا تختص به وسار شوطا جليلا في عمران قرطبة فبنى اسوارها وشيد رياضها على الطريقة الدمشقية واصلح طرق المواصلات الرومانية وبنى داراً لضرب النقود . واختط مدينة الرصافة على شمالها وهي على طراز رصافة الشام التي كانت ملكا لجده هشام وسماها باسمها تشبيها بها [١] واحاطها بالجنان وزرع فيها طيب الشجر كالمشمش والرمان والنخيل [٢] . وكان بلاطه على نسق بلاط لذريق في الابهة . وقد شعر بوجوب بناء مسجد جامع في قرطبة ليحول انظار مسلمي اسبانيا عن الاراضي المقدسة في الشرق فلا تؤثر فيهم روح الثورة و الفوضى التى كان يبثها اهل الدعوة العباسية ايام مواسم الحج في الحجاز فابتاع الكاتدرائية من مسيحيي قرطبة بمائة الف

---

(١) انظر تحت كلمة رصافة ياقوت الحموى معجم البلدان

(٢) ومن جيل شعره يصف نخلة في الرصافة قوله :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة	تناءت بارض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهى في التغرب والنوى	وطول اكتئابى عن بنى وعن اهلى
نشأت بارض انت فيها غريبة	فمثلك في الاقصاء والمنتأى مثلى
سقتك غوادى المزن في المنتأى الذى	يصح ويستمرى السماكين بالوبل

المقرى الجزء الثانى صفحة ٧٦

ومن نظمه ما كتب به الى اخته بالشام يتشوق الى معاهدها قوله :

ايها الركب الميمم ارضى	اقر منى بعض السلام لبعضى
ان جسمى كما تراه بارض	وفؤادى ومالكيه بارض
قدر البين بيننا فافترقنا	وطوى البين عن جفونى غمضى
قد قضى الدهر بالفراق علينا	فعسى باجتماعنا سوف يقضى

المعجب في تلخيص اخبار المغرب الطبعة الجمالية سنه ١٩١٤ ص ١٠٠ المقرى ج ٢ صفحه ٦٨ و٧٦

دينار و حولها الى مسجد ضاهى حسنه المسجد الحرام و المسجد الاقصى[١]

وكان عبد الرحمن يلقب بالامير وعليه جرى بنوه بعده فلم يُدعَ احد منهم بامير المؤمنين حتى كان عبد الرحمن الناصر فتسمى بالخلافة وتوارث ذلك بنوه واحدا بعد واحد[٢] . انه لم يقدم عليها وهو ابن الخلفاء نظراً للحال الشديدة فى اسبانيا التي كانت تهدده دوما بعواصف الهياج و براكين الثورة . وكيف بهِ اذا ادعاها فانه ولا شك يجعل للزعماء اصحاب النفوذ عذرا في العصيان . وقد اهملها ايضا تادبا مع الخلافة بعقر الاسلام سيما و الخلافة العباسية موطدة الاركان قد اعترف بها الاسلام باجمعهم كما وان خليفة رسول الله واحد لا اثنان . يؤكد لنا ذلك قول المقري ان الناصر بعد ذلك لم يتسم بها الا حين التاث امر الخلافة بالمشرق واستبد موالي الترك على بني العباس و بلغه ان الخليفة المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه ،[٣]

ان عبد الرحمن زرع جرثومة العلم الطيبة فى الاندلس فاسس المدارس التي كان يعلم بها الفقه و الشريعة و الطب و الطبيعيات و الرياضيات و الادب و الشعر و بنى المستشفيات قرب المساجد ومن ذلك الحين اخذت الفنون الجميلة والعلوم والآداب تزهو وتزداد الى ان اصبحت اسبانيا من القرن التاسع الى القرن الحادي عشر قلب المدنية فى العالم[٤]

---

(١) Scott الجزء الاول صفحه ٤

(٢) ابن خلدون الجزء الرابع صفحه ٢٢

(٣) المقرى الجزء الاول صفحه ١٦٥

(٤) Cooper الجزء الاول صفحه ١٦٢

عبد الرحمن الطريد الى اسبانيا فوجد ان لا امة اسبانيـة فيها ذات عادات واحدة وتقاليد واحدة واخلاق واحدة بل كان هناك خليط من الامم كالرومان والاسبانيول والقوط والنورمانديين والعرب والبربر لا جامعة قومية تجمعهم ولا مصلحة مشتركة تدمجهم ولا عقلية واحدة تسيرهم فكان جل ما رمى اليه ان يجعل منهم كتلة واحدة فقضى زهرة شبيبتهِ في قمع الثورات واعدام الزعماء . ولقد كلفه ذلك دماء غزيرة فكان ظالما جبارا منتقما لا يرحم . ان لم يقتل خصمـه في ساحة القتال قتله سرا في سبيل هذه الغاية . وقد فتك بكثير ممن اعتمد عليهم في تشييد دولتـه فنفى بدرا مولاه وحجز املاكه وبعضا ممن وفدوا عليه من اهله وهؤلاء من الذين اضجعهم ابن معـاوية في مهاد الامن والنعمة فنازعوه . واكثر جموع حزبه الاموي واستقدمهم اليه من الشام ومصر والمغرب .

ولقبه المنصور العباسي « بصقر قريش » لانه عـبر البحر وقطـع القفر ودخل بلدا اعجميا مفردا فمصر الامصار وجند الاجناد ودون الدواوين واقام ملـكا بعد انقطاعه بحسن تدبيره وعبدالرحمن منفرد بنفسه مؤيد برأيه مستصحب لعزمه [1] .

ان عبد الرحمن برهن على انه رجل الحكومة الداهية ونظير شارلمان والمنصور [2] . انه لم يكن لينتقم انتقاما اعمى حـين استتبت له الامور

(١) العقد الفريد جزء ٣ صفحه ٢٠٢ لابن عبد ربه . الطبعه الجماليه ١٩١٣ ابن خلدون الجزء الرابع صفحه ١٢٢ تجد الفكرة ذاتها

(٢) Encyclopaedia of Islam الجزء الاول صفحه ٥٣

ولم تكن عظمته وراثية بل مكتسبة فهو رجل عصامي بنى عرشا من لا شيء وقد منع فوضى الاحزاب بعد وفاته اذ اخذ البيعة لابنه هشام ثالث ابنائه من مجلس شوراه وحجابه وولاته وبذلك اسس عائلة ملكية تدير دفة الاندلس بدلا من ان يتنازع على امارتها الزعماء والاجناد ومما يذكر ان عبد الرحمن جعل من امته كتلة واحدة بينا لم يضاهه شارلمان في لم شعث مملكته الوسيعة .

كان عبد الرحمن يلبس البياض ويعتم بعمة بيضاء يسمع للعامة ظلاماتهم ويخطب بالناس يوم الجمعة . انه كان عظيما كسياسي وكجندي وكمدن وقد دعاه رودريك الطليطلي بالعادل[1] .

---

(١) (Dozy) الجزء الثاني صفحة ١٦٩

الفصل الثالث

خلفاء عبد الرحمن الداخل

اعتنق الاسلام كثيرون من اهل الاندلس وجلهم من الموالي والفلاحين وكانوا على ما يظهر في راحة وهناء ، لا يفتاون عن العمل، يقتصدون فلا يبذرون ما اوتوه من الاجرة ولا يفترون على انفسهم لكن كانت تلعب بهم ريح الثورة فينقادون الى رجال الدين كلما نفخ في بوق الفوضى احد منهم فيجرون على البلاد الويل الشديد.

لم يسمح عبد الرحمن الداخل لاحد من الفقهاء ان يعارضه في سياسته الداخلية او الخارجية ولا ان يشاركه في سلطته شريك او متنفذ فلما افضى الملك الى هشام ولي عهده صارت لرجال الدين الكلمة المسموعة فى الدولة . وكان هشام تقيا ورعا حليما كريما فحينما تنبأ له احد الفلكيين انه لن يعمر طويلا زهد في الدنيا ورغب فى اعمال البر ولبس الثياب البسيطة العادية وصار من عادته ان يسير فى شوارع العاصمة ليلا متحريا للعدل مختلطا مع افراد الشعب ليجبر عثرة الكريم المحتاج وكان يخرج من قصره في ليالي الشتاء المظلمة المطيرة ومعه صرر الدراهم يتحرى بها المساتير وذوي البيوتات من الضعفاء والمرضى والمساكين[1]

(١ المعجب في تلخيص اخبار المغرب للمراكشي ، الطبعة الاولى بمصر سنة ١٩١٤ ص ١٠ العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ٢ الطبعة الاولى بالجمالية بمصر ١٩١٣

فعزلهم ويخفف عنهم وقد تمادى في عدله حتى اخذت رعيته تنهج منهجه وتقفو اثره وذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز (١) فارسل بفئة من ثقاته الى المقاطعات والكور يسألون عن سير عماله ويخبرونه بحقائقها وان انتهى اليه ان احدهم يظلم ويسوم اهل البلاد عسفا كف يده وقاصه .

تأسس المذهب المالكي في هذه الآونة في المشرق لصاحبه مالك ابن انس المدني (٢) وكان يكره هذا اسياده العباسيين الذين اتهموه بمساعدة دعاة العلوية فجلدوه وسجنوه فاتجه نظره الى الدولة الاموية في اسبانيا وقد احب الامير هشاما حبا جما لما اتصف به من الخصال الحميدة والخلال الشريفة فصرح انه الامير المسلم الوحيد الذي تليق به الخلافة لانه القادر على احتمال اعباء مسؤليتها العظيمة دون غيره من الامراء . ولما كان تلاميذ مالك مقربين من هشام اخبروه بما له عند استاذهم من الاحترام فبذل جهده في نشر الدعوة المالكية وبعث البعوث الى المدينة للدرس والتحصيل (٣) كل هذا يتبين لنا جليا واضحا حينما تلمس حقيقة المناظرة السياسية بين الدولتين الفتيتين في الشرق والغرب

حينما توفى هشام سنة ٧٩٦ كان لمذهب مالك شان كبير في اسبانيا

(١ المقرى ج ١ ص ١٥٨ الطبعة الازهرية المصرية ١٣٠٢ هـ . راجع سيرة هشام الاول في [illegible] ج ص ٥٥ ٥٦ [illegible] ج ١ ص ٢٣٦

٢) راجع تاريخ حياته في كتاب ابن خلكان الموسوم بـ (وفيات الاعيان ج ١ ص ٦٢٥

(٣) [illegible] ج ٢ ص ٥٧

اذ ضم بين جناحيه رجالا اذكياء وشبانا طموحين متطلعين الى العلاء ومناصب الرفعة امثال يحى بن يحيي الليثي [١] راوي الموطا وهو بربري من مصمودة شديد الاصغاء لاستاذه مالك فلقبه (بعاقل اسبانيا) وطارت له في قرطبة شهرة ذائعة .

اما الحكم بن هشام الذي تولى الملك بعد ابيه فلم يكن طاغيا كما يلقبه بعض مؤرخي العرب فاحترم الدين واحب اهله غير انه لم يخلق ليعيش عيشة النساك والزاهدين بل اولع بالصيد وشرب الخمر فى صباه [٢] وما غض الطرف عن اي فقيه اراد ان يتداخل في الامور الادارية فباشر الاعمال بنفسه فتسلح الفقهاء بفعل مذهب مالك فى العامة وعارضوه لان الحكومة اعترفت فتاوي مالك واهل المدينة الفتاوي الرسمية بعد ان كانت للاوزاعيين . وهاك مثلا من امثلتهم فى دعواهم له ليرجع الى الله « ايها المسرف المتمادي في طغيانه المصر على كبره المتهاون بامر ربه افق من سكرتك وتنبه من غفلتك [٣] » وما نحا هذا النحو . انهم بعملهم هذا لم يحسبوا حسابا للدماء التي ربما تسفك من اجل اطماعهم المسدولة عليها جلابيب التقوى فاهاجوا الشعب والعامة عليه — واغلبهم من المسيحيين الذين دانوا بالاسلام وكانوا اشد تعصبا له من المسلمين انفسهم — فرجموه بالحجارة يوما وهو سائر في اسواق العاصمة غير ان الحرس فتحوا له طريقا بسيوفهم وكان

---

(١) راجع شيئا عن الليثي في المقرى ج ١ ص ٣٢٧ فابعد

(٢) « « ج ٢ ص ٥٨ — ٥٩

(٣) المراكشي ص ١١

ذلك سنة ٨٠٥ .

وتآمر يحيي بن يحيي وعيسى بن دينار الملقب بفقيه الاندلس وطالوت وغيرهم من رجال الدين والارستقراطية العربية والنبلاء وقرروا خلع الحكم فبايعوا احدذوي قرابته المدعو — ابن الشماس — فخانهم ووشى بهم فهرب منهم الرؤساء الذين ذكرنا الى طليطلة الثائرة الا ان اثنين وسبعين من المتآمرين وقعوا تحت طائلة القانون فصلبوا جميعا (١) .

سار الحكم في السنة التي تلت هذا الحادث (٨٠٦) ليخضد شوكة ماردة الثائرة فلم يكد يترك قرطبة حتى لعبت الفوضى باهلها واختل النظام فرجع اليها واعدم كثيراً من الذين اعتقد انهم جرثومة التمرد الذي يهدد سلامة المملكة . وكان الحكم يخشى الثورة ويتألم منها فالتجا احيانا لافتك لاجل اخمادها .

اخذت طليطلة العاصمة القوطية الشهيرة بمركزها الديني السياسي تتطلع الى الاستقلال وتترقب الفرص المناسبة لمناوأة الامويين في قرطبة واتصف اهلها بالشجاعة والفروسية وامتازوا بكبريائهم وكان غربيب Gharbib الشاعر يبعث فيهم روح الحياة والامل بالحرية والجمهورية فاستولى على قلوب مواطنيه . ولم يجرأ الحكم على مهاجمتها وردها الى الطاعة ما دام شاعرها حيا . فلما قضت عليه المنون ارسل احد قواده المدعو بعمروس لينفذ في اهل طليطلة بخطة رهيبة كان قد

---

(١) Dozy ج ٢ ص ٦٠ — ٦١ .

رسمها وكان قد استقدمه وكتب له بولا بتها وهو من المولدين فاستمال
هذا اهل طليطلة بعد ان اكد لهم انه يكره الامويين والامير وانه من
اشياعهم ومناصريهم فآنسوا به واطمانوا اليه واشار عليهم ببناء مدينة
يمتزل فيها مع اصحاب السلطة فوافقوه وامضى رأيه في ذلك . ثم امر
الحكم صاحب الوجه الاعلى ان يستنجده خدعة منه للطليطليين ففعل
فبعث الجيش بقيادة ولي العهد عبدالرحمن مع ثلاثة وزراء غير انهم لم
يصلوا البلد الثائر الا وأُمروا بالرجوع مدعين تقهقر العدو وارتداده .
ولما اراد عمروس ان يوقع الطليطليين فى الشرك المنصوب لهم الح الى
زعمائهم بوجوب تأدية مراسم الاحترام لولي العهد تأدبا منهم وتعظيما
لمقامه السامى فكان له ما اراد وقد سعى عبدالرحمن جهده آنئذ كيما
يكتسب مودتهم ويوثق عرى الصداقة معهم . وتباحث وزراء الحكم
اثناء ذلك فى الاوامر الصادرة اليهم من قرطبة فقرروا ان يوعزوا الى
الزعماء من الوطنيين بدعوة ولي العهد الى مأدبة يقيمها عمروس فى
المدينة التي اختطها فتم الرأي في الامر وكان عبدالرحمن قد امتنع عن
قبولها اولا ثم رضي ممتنا شاكراً . فاتى المدعوون فى اليوم المعين وكان
يُدخلهم عمروس من باب ويخرجهم من آخر خشية الزحام فيدخلون
الى حفرة فى القصر وتضرب اعناقهم الى ان قتل معظمهم وفطن
الباقون فنفروا وحسنت طاعتهم . ودُعي هذا اليوم بيوم الحفرة وهلك
فيه نحو خمسمائة شخص ولا ريب انه البس طليطلة السواد على معظم

رجالها الناهضين.[1]

كان ليوم الحفرة تأثير كبير في الاندلس فهدأ الشعب نحوا من سبع سنين لكن حينما هدم الحكم اسوار قرطبة وحصونها واكثر من حاميتها الفرسان والمماليك الذين لقبهم بالخرس لعجمة السنتهم وجهلهم اللغة العربية اهاج احقاد اهل قرطبة بدلا من ارهابهم فوفر عدد الناضبين خصوصا فى القسم الجنوبى من المدينة حيث يسكن معظم اهل الدين وطلاب الفقه والشريعة وساروا يتلاطمون تلاطم الامواج الى القصر ،طالبين قصاص الجند الذين عتوا وظلموا الشعب.فبقي الحكم ساكنا هادئا وامر عبيدالله احد اقاربه ان يحرق ربض الثائرين بقوة من جيشه تخترق لها طريقا بين الجموع بحدالسيوف . وداهمت الثوارَ الخيل من ورائهم فانهزموا وتشتتوا حينما رأوا النار تشتعل فى ربضهم . وطلب الحكمّ «من اهل الربض» ان يهجروا الاندلس قسراً فرحلوا عن الوطن باهلهم ونزل بعضهم الاسكندرية وثاروا بها سنة ٨٢٦ . فزحف اليهم عبدالله بن طاهر وافتتحها واجازهم الى جزيرة كريت .وكان مقدمهم ابا حفص عمر البلوطي وظل رئيسا عليهم وكذلك ولده من بعده الى ان ملكها البيزنطيون من ابديهم سنة ٩٦١ ولحق البعض الآخر بفاس عاصمة الادارسة وجزيرة صقلية .[2]

---

(١) راجع عن يوم الحفرة في ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٦— ١٢٧ و Moors in Spain تأليف Stanley Lane Poole، ودوزى ص ٦٢— ٢٧

(٢) راجع عن وقعة الربض في ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٦ ، والمراكشى ص ١١ و Hist. des Arabes ج ٢ ص ١٤٩ تأليف Cl Huart.

ويقول المقري انه أثخن في الامم النصرانيـة وكانت له مواقـع شديدة مع لويس بن شارلمان في الثغور . وهو اول من جند الاجناد والمرتزقة واتخذ العدة وجمع الاسلحة واستعد بالمماليك حتى بلغوا خمسة آلاف منهم ثلاثة آلاف فارس والفـا راجل . [١] وحفت به الابهة الشرقية فاحاط نفسه بالحاشية واهل البلاط وارتبط الخيل .

ها اننا بعد ما سردنا ما تحققناه من الحوادث نعلم حق العلم ان الحكم لم يرض عن تدخل رجال الدين في شؤون الدولة اما ابوه فكان يميل اليهم واذا حضر مجلسـا من مجالسهم امتلأ ادبا وتاريخـا وذكر امور الحرب ومواقف الابطال . وكان هشام عمرانيا اذ أكمل بنـاء الجامع بقرطبة وكان قد شرع ببنائه عبدالرحمن الداخل ، وجدد القنطرة التي يضرب بها المثل .

ازدهرت الاندلس وزهت في عهد عبدالرحمن الثاني الذي اعتـلى العرش بعد ابيه ذلك لان ايامه كانت ايام هدوء وسكون فكثرت بها الاموال فاعتنى بالمشاريع العلمية فشيـد الجسور والمساجد والقصور [٢] واقام الجنائن التي تجري بها النهيرات الصغيرة المجلوبة من الجبال واغدق العطاء عـلى العلماء والادباء وضرب بسهم وافر من عـلوم الشريعة والفلسفة [٣]. وجارى خلفاء بغداد في ترفهم فاحاط نفسه بالحاشية الكبـيرة ورتب رسوم المملـكة واحتجب عن العامة . وقد اشتهر بضعف ارادته

(١) المقري ج ١ ص ١٦٠ ، [illegible] ص ١٧٥ من الجزء الثاني يذكر شيئا عن ابهته

(٢) LanePoole ص ٧٨ ، Dozy ج ٢ ص ٨٧

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٠ ، المقري ج ١ ص ١٦٢

ولينه قابرم بعض خواصه الامور ولم يرد لهم شيء مما ابرموه وكيما نظهر صورة صادقة للبلاط الاموي فى هذا العصر العامر نقول انه كان يؤثر على الامير الشاب اربعة : فقيه وموسيقي وامرأة وخصي.

اما الفقيه فكان يحي بن يحي الليثي الذى شمله عفو الامير الحكم بعد واقعة الربض المشهورة تلك الواقعة التي علمته ان القوة لا تكتسب بالشدة والثورة والفوضى بل باللطف واللين فاستمال عبدالرحمن ووجد لعاطفة الدين في صدره موضعا رحبا فعمل دوما باشارة يحي وطأطأ الرأس امامه وترك له القضاء [١] وقد قام الفقيه على رأس حزب عديد من الشيوخ والنبلاء وعامة الناس الذين استهواهم بعبادته منذ واقعة الربض فاصبح ذا قوة معنوية عجيبة تؤثر على النفوس وكان ينكر على المستبدين ظلمهم لكن لما انتهت اليه امور الشرع جعل العسف سلاحه . وجعل القضاة يأتمرون بامره كالآلة العمياء خيفة على مناصبهم اما من عارضه واتبع ضميره فكان جزاؤه الطرد . [٢]

اشتهر مذهب مالك في الديار الاندلسية فتفقه به جماعة وروى عن يحي طلاب كثيرون وكان السلطان لا يلي قاضياً فى اقطار الاندلس بغير مشورته واختياره ولا يشير هذا الا باصحابه ومن كان على مذهبه [٣] فاصبح مذهب مالك قويا مكينا . وارتحل الى المشرق وهو ابن ثمان

---

(١) Dozy ج ٢ ص ٨٨

(٢) Dozy ج ٢ ص ٨٩

(٣) المقرى ج ١ ص ٣٢٨ اقرأ عن الليثى فى ابن خلكان ج ٢ ص ٣٢٠

وعشرين سنة فسمع من استاذه مالك وتشرب روح تعاليمه وتفقه على رجال المدينة ومصر وتقع اهمية يحيي حقا في توطيده دعائم هذا المذهب بكل قواه .

اما الرجل الثاني الذي خضع عبدالرحمن لمواهبه وجمال فنه فهو زرئاب المغني واسمه ابو الحسن علي بن نافع مولى الخليفة المهدي العباسي (١) وقد ضاهى تأثير زرئاب نفوذ يحيي وان لعب كل منهما دوره في دائرة مخصوصة . وهو اعجمي الاصل تأدب في بغداد ودرس على استاذه اسحق الموصلي المغني المشهور فهدي من فهم الصناعة وطيب الصوت ما نازع به استاذه في شهرته عند الرشيد الخليفة العباسي وكان ذلك حينما اقترح الخليفة على اسحق ان يأتيه بمغن غريب مجيد فاتى له بزرئاب وغنى في حضرته .

يا ايها الملك الميمون طائره
هرون راح اليك الناس وابتكروا

فسر الرشيد طربا لكن ذلك هاج بالموصلي من داء الحسد ما غاب على صبره فابعده بالتي هي احسن بعد ان دس في جيوبه فلوسا واكد له ان يقتاله باذلا دمه وماله في سبيل ذلك فاختار الفرار ثم لما طلبه الرشيد بعدئذ اخبره الموصلي برحيله بعد ان ابطأت عليه جائزة امير المؤمنين وذم فيه زاعما انه رجل يقيس مواهبه بمقياس من المجرفة واثبت له جنونه بقوله « انه غلام مجنون يزعم ان الجن تطارحه ما يزهى

(١) المقري ج ٢ ص ١٠٩ ، و Dozy ج ٢ ص ٨٩ - ٩٦ و Huart ج ٢ ص ١٥٠ و L.Poole ص ٨١

به من غنائه ، حقا ان زرياب أثرت عليه عاطفاته فسمت به النفس الى الاعتقاد ان غناءه وحي يوحى له به .

مضى زرياب الى المغرب وكتب للامير الحكم يعلمه بمكانه من الصناعة التي ينتحلها ويسأله الاذن بالوصول اليه فسر الامير واظهر له الرغبة فى ذلك ووعده بالانعام والعطف فعبر بحر الزقاق وأتى الجزيرة الخضراء . وظل هناك حتى توالت عليه الاخبار بوفاة الحكم فهم بالرجوع فمنعه منصور اليهودى الموسيقي — وكان قد ارسله الامير لاستقباله — واكد له ان عبدالرحمن الثاني شغف بالموسيقي ولوع بها يهب اصحاب الفنون الجميلة الهبات الجليلة . ثم ارسل عبد الرحمن اليه بكتاب يذكر فيه انتظاره له وامر عماله فى البلاد باكرامه . ولما وصل العاصمة انزله عبد الرحمن فى دار من احسن الدور ووهب له البيوت واقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ومن الضياع مايقوم باربعين الف دينار وكتب له فى كل شهر بمئتي دينار راتبا [١]

كان هذا الموسيقي الفنان متضلعا بالجغرافيا عالما باختلاف طبائع البلاد واهويتها وتشعب نجادها وتصنيف سكانها وعاداتهم حافظا لعشرة آلاف مقطوعة بالحانها وقد امتاز بذوق سليم وابتكار غريب وقوة معنوية تجعل الانسان يشعر بجمال الفن السامي .

اما اهميتهُ فتقع فى اشمال ثورة اجتماعية في العادات واللباس بالاندلس فاتخذ لكل فصل نوعا من الثياب ورأى ان يكون ابتداء

---

(١) المقرى ج ٢ ص ١١٠ ، دوزى ج ٢ ص ٩٤

الناس للباس البياض وخلعهم اياه من شهر يونيو الى اول شهر اكتوبر ويلبسون بقية السنة الثياب الملونة [1] ويقول المقري ان الاندلسيين اخذوا عنه تفضيله آنية الزجاج الرفيع على آنية الذهب والفضة . ان زرياب حين امّ الاندلس كان جميع من فيها من رجل وامرأة يرسل جمته مفروقا وسط الجبين عاما للصدغين والحاجبين فلما عاين ذوو التحصيل تحذيفه هو وولده ونساؤه بشعورهم وتقصيرها دون جباههم وتسويتها مع حواجبهم وتدويرها الى آذانهم واسدالها الى اصداغهم هوت اليه افئدتهم واستحسنوها [2] وصار زرياب قدوة فيما سن من الآداب المصرية فدعاه دوزي «شارع القوانين» فى اسبانيا العربية [3] Legislateur وعرّف الناس على مأكولات جديدة اخذت اسمه نعتا واستمر الغناء بالاندلس تبعا لمراسم زرياب من بسيط ونشيد ومحركات واهزاج وزاد فى اوتار العود وترا خامسا اختراعا منه وجعل مضرابه من قوادم النسر «متاضا به من مرهف الخشب . والحقيقة التي لابد من تقريرها هي ان شهرة زرياب ظلت خالدة عند الاندلسيين الى اواخر حكم العرب فى اسبانيا .

امتاز زرياب بشخصيته الاجتماعية الجذابة فلم يتداخل فى الامور السياسية ولم ينتقد الحكومة وولاتها ولا تآمر عليها بل ترك هذا كله للسلطانة طروب والخصي نصر فكانت طروب طماعة محبة للمال

---

(١) المقري ج ٢ ص ١١٢

(٢) المقري ج ٢ ص ١١٢ دوزي ج ٢ ص ٩٥ L.Poole ص ٨٢

(٣) دوزي ج ٢ ص ٩٥ ويدعوه L. Poole ص ٧٢

ذات عقلية تستنبط الحيل والاشراك فباعت حبها لعبد الرحمن الثاني من اجل جاهه ونفوذه وقوته . ولما كان نصر الخصي صفيها ومقاصدها اتفقت مآربهما ووثقت علاقات الصداقة بينهما وهو اسباني لا يجيد العربية متعصب يكره المسيحيين كرها شديداً .

هذه صورة مصغرة لبلاط عبد الرحمن الاوسط ، البلاط الذي اثرت فيه عوامل الفقهاء والنساء والمغنين والخصيان فاضطرب حبل الامن في بعض المقاطعات واشتعلت فيها نيران الثورة كرسية فان ضغائن المضرية واليمنية اوهنت عزائمها وشلت عروق الحياة النابضة فيها ، ودامت عرضة للحروب وميدانا لسفك الدماء نحواً من سبع سنين . كذلك ماردة فاهلها المسيحيون تخابروا مع لويس لودو بونير Louis le Debonnaire[1] ورضخوا للحكم بعد ان عقدوا معه اتفاقا .

من يمعن النظر ويعمل الفكرة في تاريخ الاندلس يقرر ان طليطلة كانت دوما قوية الشكيمة عاصية صعب على العرب حكمها والقبض على زمامها وتاريخها ملآنة صفحاته بالاضطرابات والحركات الوطنية الاهلية القاضية بالاستقلال الذاتي على الاقل فقد قام فيها بعد يوم الحفرة رجل عامل اسمه هاشم الضراب . سكن هاشم قرطبة زمنا طويلا ثم رحل الى طليطلة مسقط رأسه والف العصابات العديدة وقوامها الفلاحون والعبيد وتمكن من التنكيل بجند العاصمة الاموية وطردها من طليطلة سنة ٨٢٩ . ومات هاشم بعد سنة من هذا التاريخ

---

(١) دوزي ج ٢ ص ٩٦—٩٧

لكن ظلت طليطلة مستقلة الى ١٦ يونيو سنة ٨٣٧ وذلك حينما فتكت باهليها جرثومة التفرقة والخذلان [١].

رضي مسيحيو قرطبة عن الامويين ورضخوا للحكم العربي لانهم كانوا يتمتعون بحريتهم الدينيـة فجاروا اسيادهم فى عاداتهم وآدابهم وسابقوهم فى ترفهم واقتبسوا العلوم وسحروا باللغة العربيـة فاهملوا اللاتينية واهتموا بلغة الفاتحين وهاكم ما يقوله احـد مواطنيهم نادبا حظ ابناء روماس «يهيم مواطونا بالشعر العربي والآداب العربيـة ويدرسون تعاليم الفلاسفة ورجال الدين من المسلمين دون ان يدحضوا مدعياتهم ويفندوا حججهم بالحجة. فمن من الجمهور يقرأ فلسفه الاسفار المقدسة ويدرس الانجيل ومـا اتى به الرسل. اواه، يكاد الشبان المسيحيون لا يعرفون غير العربية وآدابها اذ انهم يكبون على مطالعتها بحماس زائد ويجمعون من مؤلفاتها المكاتب القيمة ويصرحون على رؤوس الأشهاد انها غاية في الابداع. واذا ما حدثتهم عن كتب النصارى اجابوك انها غير جديرة باهتمامهم لركاكتها واذن أليس من المؤلم ان لا ترى بين الف من المسيحيين من يكتب بلغة لاتينيـة صحيحة الى صديق له مثلا. ذلك لانهم طفقوا ينسون لغتهم بينما تسيل اقلامهم فصاحة وبيانا بالعربية [٢]».

ليس هذا الاقبال على موارد الآداب العربية بالامر الغريب فما

---

(١) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٨

(٢) دوزى ج ٣ ص ١٠٣ وقد نقلها عن مخطوطة I ١٠١ ص ٢٣٧ من كتاب Flora

عاد في قرطبة . ؤلف من مؤلفات الشعراء الاقدمين بل جل ما تناولته الايدي دتبا دينية وهي لا تلذ عموما للمطالعين مما يدلنا على احتقار اللاتينية للاهمال الذي نكبت به على يد ابنائها .

قلنا اقتبل بعض الاندلسيين الحكم العربي بين ظهرانيهم بسهولة فاستعرب مثلا مازيد على النصف من مسيحيي قرطبة لكن الروح الوطنية والشعور باحترام النفس لم يدفنا دفنا ابديا في صدورهم فارتجف المعارضون ألما وحقداً لمجرد ذكراهم ان قرطبة بلدهم الامين اصبحت مسكنا لا بل عاصمة لامير عربي فاتح . فكان هؤلاء يحسدون الحكومات الشمالية الصغيرة على استمتاعها بنعمة الحكم المسيحي ولو ظلما .[1] اذ بذلك تخلص من سلطة العرب المسلمين . بمثل هذه العاطفات كانوا ينمون في انفسهم كره الغريب الاجنبي وقد زاد في آلامهم واندفاعهم في طلب الحرية اصدار الحكام والامراء آنا بعد آن اوامر تنافي الحقوق الدينية التي وهبت لهم منذ الفتح فاوجبوا الختان على المسيحي اسوة بالمسلم[2] .

اذا لم يسد بين الامم شعور متبادل فيما ينظمه الافراد من الشرائع والقوانين والمعتقدات فيصعب ان تتمازج الشعوب وتتقارب وتتسامح؛ ولما كان الكهنة[3] اكثر الناقمين على العرب لسوء فهمهم تعاليم الرسول محمد (ص م) نبي الفاتحين جعلوا يثيرون الاحقاد والضغائن

---

(١) دوزى ج ٢ ص ١٠٥

(٢) دوزى ج ٢ ص ١٦٥ نقلا عن [illegible] ص ٢٧٣

(٣) لان پول ص ٨٣

بين الامتين العربية والاسبانية وينمونه بالخرافات التي اذاعوها عنهم لظنهم انه أتى معاكسا لما بشر به السيدالمسيح وهاك ما قاله Alvaro بهذا الشأن «امر محمد (عدو مخاصنا) ان تكون الجمعة يوم الافراح والمسرات بدلا من ان تكون يوم الاحزان والصيام اذ بها صلب الفادي ... المسيح بشر بالعفة ومحمد اتى بالتهتك ... المسيح علم الزواج ومحمد جاء بالطلاق [1] » . تلك حقيقة مضحكة مبكية لابد من ذكرها لانه متى اكتسب الشرق روح الشعور المتبادل نزع عنه اكبر عثرة تقف في سبيل استقلاله وتقدمه .

يظهر مما تقدم ان الكهنة لم يفقهوا شيئا من الدين الاسلامي بل ظلوا ينظرون اليه نظرهم الى الوثنية الرومانية الاولى التي اختلقها الشيطان. لئن كان المسلمون المتنورون يحسنون معاملة المسيحيين ولايسيئون اليهم في دينهم فعامة الشعب متعصبة ليست على التساهل في شيء . فبدأت باستهزاء الكهنة ولعنهم حينما تدق اجراس الكنائس معلنة موعد الصلوات وزاد المتطرفون الغلاة في استمساكهم بعروة التعصب فما اقتربوا من مسيحي ولا لامسوه . [2]

فلما جرح المسيحيون في كبريائهم وأفتهم شرع الكهنة والرهبان وبعض العامة ينزحون الى المدن البعيدة عن النفوذ الإسلامي ويرفعون رايات الثورة عصابات واقبلوا على الاستشهاد اقبالا جنونيا

---

(١) دوزي ج ٢ ص ٢٠٧

(٢) دوزي ج ٢ ص ١٠١ نقلا عن P 2471 Euloge Memori Sanct لان پول ص ٩٢

كما فعل الكثير على زعمهم من ابناء الكنيسة . اما الغلاة منهم فكان يقودهم رجلان احدهما الكاهن Eulogio تلميذ الراهب Sperain-Deo المؤلف لكتاب يدحض به المدعيات والتعاليم الاسلامية والثاني Alvaro النبيل القرطبي فاتفقا في مبادئهما ووثقت عرى الصداقة المتينة بينهما .

دفع عقاب الحكومة العربية الصارم بعض من شتم النبي للاستشهاد فاعدمت في اقل من شهرين احد عشر من الثوار المتطرفين فغضب من سلوكهم هذا بقية المسيحيين الذين ودوا ان يعيشوا بسلام آمنين اذ لربما اضطهدهم المسلمون بعد ذلك وهم اصحاب النفوذ . وحقّ للحكومة ان تخاف هذه الحركة القائمة على التعصب[1] فنشر السلطان ان لكم دينكم وللاسلام دين وعقد مجمعا لاتخاذ التدابير الضرورية لايقاف تيار الاستشهاد . اما اعضاؤه فكانوا اعاظم الكهنة الاندلسيين. ومثّل عبد الرحمن الثاني فيه رجل مسيحي من ارباب المناصب العالية في الدولة اتهمه Alvaro و Eulgo بالكفر والرياء وتجردا عن ذكر اسمه في كتاباتهما وهو يدعي قومس بن انطون بن بوليان ، كتب العربية الفصحى وهو مأمور بسيط فاستلفت انظار رئيسه عبدالله بن امية والامير نفسه فاصبح ذا نفوذ طائل في البلاط . وكان لا يهتم بالدينيات والعالم غير المنظور فرمى المستشهدين بالجنون . وكيما لا يعم الفتور بين المسلمين والمسيحيين وتضمحل الثقة المتبادلة فيما بينهم وخيفة ان

(١) دوزى ج ٢ ص ١٢٦

يصير عدد كبير من العقلاء ضحية الجهل فيخسر ارباب المناصب مناصبهم واموالهم ، جعل ينددد بالاستشهاد وسار متكاتفا مع الحكومة ومع قسم كبير من طائفته .

افتتح المجمع رئيسه مطران اشبيلية ريكافرد Recoufred فقام قومس خطيبا ووصف الحال وصفا دقيقا واسهب عما تجره من العواقب الوخيمة التي منشئوها سباب الرسول وشتمه ثم رجا الاعضاء ان يصدروا قراراً يمنع الشعب المسيحي من السير على منهج المتطرفين ومحاكمة من نفخ في بوق الثورة ورمى بالبسطاء الى الاعدام ونشر الرئيس قرار المجمع على الناس وهو يتضمن عقاب المهيجين فمارضه Eulgo بكتاباته لكن المجمع تعضده الحكومة امر بسجنه مع بقية زعماء الفتنة .

ظهر (النورمان والدان Danes) او المجوس كما يلقبهم مؤرخو العرب في ايام الامير عبدالرحمن الاوسط وغزوا الشواطئ الاسبانية وعبروا انهارها فاتوا اشبونه وقادش وشدونه ثم قصدوا الى اشبيلية ونزلوا قريبا منها فقاتلتهم الحامية العربية وهزمتهم لكنهم مضوا الى باجه فاغاروا وسبوا ثم سكنت البلاد وانقطع خبرهم وكان ذلك سنة (٢٢٦ — ٢٣٠ هـ) [1]

كانت الدولة العباسية قد اوغلت في الفتح وضيقت الخناق على

---

١ راجع ذكره « خروج المشركين » في مخطوطة للنويري مطبوعة في Recherches sur l'his [illegible]
ثم قابلها مع ابن خلدون ج ٤ ص: ١٣٠ — ١٣١ Appendice xxv [illegible]

البيزنطيين في عهد المأمون فبعث ملك القسطنطينية نوفلس الى عبدالرحمن بهدية وطلب مواصلته ورغبه بملك سلفه بالمشرق فكافأه الامير عن الهدية وارسل الشاعر الحكيم يحيي الغزال فاحكم الوصلة بينهما غير ان هجمات الشماليين النورمان والدان لم تمكن الدولة الاموية من التحالف فعلا مع البيزنطيين على الدولة العباسية في بغداد.

قضى عبدالرحمن الاوسط ولم يوص بولاية العهد لاحد من ولديه محمد وعبدالله اللذين أمل كل منهما اعتلاء العرش والتربع على دست الحكم بعد وفاة ابيهما فاقر رأي خصيان القصر حفظا لمصالحهم ان تلعب بها الايدي تعيين محمد دون عبدالله لانهم خافوا ام الاخير السلطانة طروب لما عرفوا فيها من سعة الحيلة وشدة المكر. وكان الامير الجديد أمانيا فلم يتأثر البتة لموت والده، طماعا لا يغفل عن شاردة ولا واردة في امور المالية الا وكان يجني فوائدها لحسابه. اما اعوانه فكان الفقهاء المتعصبين فاوعزوا اليه ان يضيق الخناق على المسيحيين فطرد الموظفين منهم في الدوائر الملكية والعسكرية وهدم الكنائس التي تم بناؤها بعد الفتح وكان من تقدمه قد غض الطرف عنها. [1] ثم اضطهد منفذو اوامره كثيراً من الابرياء فاجبر جما غفيراً من النصارى على اعتناق الاسلام وفي طليعتهم قومس وقد لقبه الفقهاء بعد ذلك بعماد الجامع لورعه وتقواه.

هنا نقف لنسائل انفسنا عن نتائج هذا الاضطهاد فنرى ان

(١) دوزي ج ٢ ١٦٠

الطليطليين الذين ما فتئوا ينشدون الاستقلال وجدوا فيما قام به الامير سيبا للثورة فاستلم زمام قيادتهم رجل منهم يدعى Sindola فاجبر حامية المدينة مع Calatrava على الانسحاب وزحف بجيوشه وجند حليفه اوردونو الاول ملك ليون الى العاصمة الاموية فهددها الا ان محمداً أمر قسما من جيشه بالمسير الى طليطلة ثم نصب المنجنيق على اسوارها وكمن بمعظم الجند فى وادي سليط الوعر[1] Le guadacelete (٨٥٤) فهاجم الاعداء لقلة عددهم فانسحبوا الى ان اوصلوهم الى الكمين المعد لهم فأطبق عليهم وفتك بهم فتكا ذريعا . وقد علق الامير ثمانية آلاف من رؤوس الاعداء على اسوار قرطبة وطليطلة وارسل بعضها الى امراء افريقيا عبرة للعصاة . وهدم دير Tabanes المحرك الاعظم لروح المعارضة والقلق في الشعب المسيحي واعدم Eulgo فى ١١ مارس سنة ٨٥٩ وزاد الجندية فخضعوا للقوانين ولم يبق من تلك القلاقل الا الذكرى المؤلمة .

لم تمت العصبية الاسبانية في الاندلس بل كانت تنمو يوما فيوما فكان مقاطعة رية المسلمون والمسيحيون الاسبانيول كانوا يكرهون اسيادهم العرب ويأبون الخضوع للغريب . وقد شجعهم على المطالبة باستقلالهم ما صادفه اغلب الثوار فى انحاء المملكة من الفوز فظلت طليطلة تحكم نفسها بنفسها زهاء عشرين عاما وعقدت المعاهدات القاضية ان تكون حكومة جمهورية بشرط ان تدفع لخزينة قرطبة خراجا سنويا .

---

(٢) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٠ ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ٢٥

وكانت الارغون تتمتع باستقلالها ايضا تحت امرة بني قاسي القوطيين المسلمين . وقد بلغت هذه العائلة اوج مجدها في القرن التاسع الميلاد وذلك ايام موسى الثاني الرجل الشجاع الخبير بفنون الحرب واساليبها فهابته ملوك فرنسا والكاستيل . ثم احتل السلطان سرقسطه و Tudel عقب موت موسى، غير ان ابناءه يعضدهم الفونس الثالث ملك ليون اجبروا محمداً على احلائهما (١) . فنستنتج اذن ، ان الشمال ظل حراً مستقلا متحداً على الدولة الاموية فى قرطبة .

واسس ابن مروان امارة فى الغرب تشتمل على بطليموس (٢) وما يجاورها ودعا الناس الى دين جديد مقتبسة تعاليمه من الاسلامية والمسيحية وحالف الفونس الثالث ملك ليون واجبر قرطبة بعد الاشتباك معها في عدة معارك على الاعتراف به .

يظهر لنا جليا مما تقدم ان الحكومة العربية الاموية كان يتقلص ظلها فى بلادها . ويضعف نفوذها فى اطرافها وتقوى شكيمة الثوار في انحائها فسرت عدوى الفتنة فى رية فشقت عصا الطاعة سنة ٨٧٩ م لكن الحكومة اتخذت التدابير الشديدة فبنت الحصون القوية وعززت حاميتها فهدات نوعا . حقا ان رية كانت كالبركان الهادئ ان وجدت زعيما يقودها قذفت حمما وناراً .

سكن فى قرية قريبة من حصن اوت Hien Aute المعروف اليوم بـ Yezante في الشمال الشرقي من مالقه رجل نبيل يدعي حفص

(١) هوارج ٢ ص ١٥١

(٢) راجع اخبار ابن مروان في ابن خلدون ج ٤ ص ١٣١ — ٣٣ — ٣٤ .

يتصل نسبه بنسب العائلة المالكة القوطية ، وقد هبط جده الكونت تلك القرية في عهد الحكم الاول وذلك بعد ان هاجر روندا موطنه واعتنق الاسلام . وجمع حفص هذا ، بجده واقتصاده ثروة تذكر فلقبه مواطنوه حفصون (ويقول دوزي ان الواو والنون فى حفصون من علائم النبل [١]) . وكان سعيداً مغتبطا فى حياته غير ان ولداً له اسمه عمر نغص عليه عيشه وأذاقه من ضروب العقوق والاذى الوانا . فقام الولد يوما وغضب على ابن جار لهم فقتله فأجبر الاب على الفرار ومغادرة الاوطان مع عائلته الى Serranie de Ronda وتقع هذه المدينة على سفح جبل بوباسترو [٢] . هناك في تلكم الطبيعة الوحشية بمناظرها المريعة بوديانها الجليلة بحراجها عاش عمر عيشة اللص الشريد الطريد فسلب المسافرين وعابري السبيل فوقع تحت طائلة القانون وجلد ثم طرده ابوه من بيته .

ركب عمر متن البحار حينما ضاق عيشه وشح رزقه فى اسبانيا فقصد الى تاهرت فى افريقيا واستخدم عند خياط لكنه لم يكد يستقر به المقام حتى سمع من رجل شيخ من مواطنيه ان الثورة اشتعلت في بوباسترو . فرحل الى بلاده ثانية لانه كان من المؤمنين بالنهضة الاسبانية والداعين الى الانشقاق عن العرب ولا ريب ان الطبيعة وهبته ذكاء نادراً ومواهب كبيرة فحركت هذه الفتنة ما كمن فى نفسه من روح الاستقلال والنزوع الى الحرية فرمى ابرته التي ما خلق لحملها ورجع

---

(١) دوزى ج ٢ ١٩١

(٢) ويدعوه العرب — جبل يشتر —

الى منيفه وغمده . فالف العصابات وجمع شتاتها مع عمه وكل رجالها من المزارعين والفلاحين واتخذ مركزاً له حصنا رومانيا صعب المرتقى يدعى Castillion في بوباسترو. وشرع ينهب الاموال ويضرب الضرائب ويستولي على الماشية في السهل الواقع بين الـ Campillos وقرطبة . وحينما اشتد عزمه وكثرت جموعه جعل يطرق ابواب المدن فجهز حاكم رية حملة ليقمع ثورته ويؤدبه فكان نصيبها الفشل وقد ظل يعيث في الارض فساداً مدة سنتين الى ان أقنعه هاشم الوزير الاول في المملكة بالتسليم بشرط ان ينخرط في سلك الجندية مع رجاله ويشملهم العفو ففعل (١) .

اظهر عمر براعة حربية وشجاعة فائقة حينما نازلت قرطبة في صيف سنة ٨٨٣ ملك ليون وحليفه لوب رأس بني قاسي ، خصوصا في معركة Poncorovo لكنه حينما ام العاصمة بعد القتال جعل محمد ابن الوليد بن غانم محافظ المدينة ، يدس الدسائس لرجال ابن حفصون وهم من الذين شملهم الوزير هاشم برعايته لحسد بينهما . فغضب ابن حفصون وترك خدمة الامير وقفل راجعا سنة ٨٨٤ الى بوباسترو طالبا الحياة الحرة التي الفها وعاش منذ الصغر في كنفها .

ويمكننا ان نقول ان عمر نجح في نشر دعوته في اسبانيا الوسطى Midi بين المسلمين والمسيحيين من الاسبان فطلب التخلص من كابوس السلطات العربية والتمتع بالاستقلال . ومن الغريب ان رجاله

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٤ فما بلي وهو ارج ٢ ص ١٥١ . ولين- بول ص ١٠٢ ، ودوزي ج ٢ من الفصل الحادى عشر الى الفصل الثامن عشر .

احبوه محبة تقارب العبادة فاطاعوه طاعة عمياء وتعصبوا لشخصه تعصباً شديداً . ذلك لانه كان دوما في مقدمتهم ايام المعارك فلا ينقلب الا حينما تخفق بنود النصر على رؤوسهم وقد أنعم عليهم النعم المتوالية وغمرهم بعطاياه وقدر البطولة فيهم حق قدرها وكانت عدالته احيانا تقف سداً مكينا تجاه لصوصية بعض جنوده . لقد مضى عامان دون ان تعارضه قرطبة في اعماله وتقف تجاهه موقفا حازما صارما فسار اليه المنذر ولي العهد سنة ٨٨٦ وحاصره مع حليفه حاكم Alba نحواً من شهرين متواليين فاراد الثائر الكبير ان يخترق له منفذاً من بين صفوف اعدائه فكسر وارتد الى حصونه بعد ان جرح جروحا بليغة ثم أجبر المنذر على التقهقر ورفع الحصار عنه لان اباه محمداً توفي في ٤ اغسطس سنة ٨٨٦ فاغتنم ابن حفصون هذه الفرصة الثمينة وألحق به الحصون العديدة وحالف اصحابها واعترفوا بسيادته وأصبح بحق ملك اسبانيا الوسطى الحقيقي .

لو أتيح للمنذر ان يعمر لكان خصما عنيداً ونداً شديد البأس لعمر ولخضد شوكة العصاة اذ عارض الثوار بقوى هائلة وبطش بهم مراراً حتى اصبحت كابرا والبيره وجاين ساحة تدور بها رحى الحرب يوما له ويوما عليه .

قاد المنذر في ربيع سنة ٨٨٨ جيشه بنفسه فاكتسح نواحي بوباسترو واستولى على عدة حصون وحاصر ارشيدونا فلم تلبث طويلا حتى خضعت فصلب قائد حاميتها ثم سار الى سيبراده ريجيو فاعدم

زعماء الثورة وعددهم تسعة عشر رجلا وأتم الزحف حتى اتى حصن بوباسترو المنيع لحاصره . ولما اشتدت الازمة على ابن حفصون سأل الصلح فأجابه اليه وافرج عنه بشرط ان يسكن قرطبة مع عائلته وان يكون من قواد الامير فنكث العهد فرجع لحصاره ثم صالح ونكث مرتين الا ان المنذر صمم على القضاء عليه فعاجلته المنية في ٢٩ حزيران سنة ٨٨٨ دون ان يتم امانيه [١] .

مات المنذر مسموما [٢] بيد جراحه وذلك بعد ان أغراه على ارتكاب هذه الجريمة اخوه الامير عبدالله فاخذ البيعة لنفسه من القرشيين والامويين ورجال الدوائر المهمة وقادة الجيش . وكانت الجنود لا تطمع في احتلال بوباسترو لحصانتها غير ان المنذر اصر على فتحها آنئذ فحينما قضى ولت الجند الادبار غير عابئة بالمسؤولية .

تسنم عبدالله العرش والحال مضطربه والحكومة منهوكة القوى تكاد تصير نحو الانحلال الكلي فالدولة الاموية كانت تجاه نارين ، نار الاسبان بقيادة ابن حفصون من جهة ، ونار الارستقراطية العربية التي بدأت تطالب بالزعامة والاستقلال من الجهة الاخرى . وقد كانت الارستقراطية العربية اشد خطراً على الملكية العربية من الاسبان انفسهم لانهم جرثومة حياتها وقوامها فان افترق اهل البيت الواحد

---

(١) راجع العقد الفريد ج ٣ ص ٢٠٧ — وابن خلدون ج ٤ ص ١٣٥ ودوزى ج ٢ ص ٢٠٢ — ٢٠٤

(٢) يقول دوزى ان المنذر مات مسموما وان اخاه اشترك في التدبير عليه ج٢ ص ٢٠٤ اما ابن بول فيدعي انه قتل وهو لا يبرئ اخاه عبد الله من الاشتراك في الجريمة ص ٩٨

على انفسهم تهدم وكان امره بوراً.

أقر الامير عبدالله ـ اصلاحا للامر ـ ابن حفصون على حكومة رية مشترطا الاعتراف بسيادة قرطبة اعترافا صريحا فنجحت هذه السياسة الجديدة نوعا ثم رجع الثائر الى ما كان عليه فنهب القرى وأعمل السيف في سكانها حتى وصل الى ابواب اوسونا وايسيجه Ecija وOssuna وقرطبة.

خسر عبدالله كثيراً بسياسة التقرب الى الاسبان التي جرى عليها فقاومه الزعماء العرب واستقلوا في المقاطعات البعيدة والجهات القوية الرهيبة ووقعت شقة الخلاف بين الشعبين العربي والاسباني. فالبيرة سكنها هذان العنصران وكانت قبلا مهد النصرانية في اسبانيا لكن الاسلامية اخذت تتغلغل فى ارجائها منذ ايام الحكم الاول فكثر عدد المسلمين فيها وبني لهم الامير محمد جامعا على تأسيس حنش بن عبدالله الصنعاني الشافعي وقد جاء على محرابه كما وصفه الوزير لسان الدين الخطيب فى كتابه «الاحاطة في اخبار غرناطة» ما يأتي «بسم الله بنيت لله، امر ببنائها الامير محمد بن عبدالرحمن أكرمه الله رجاءَ ثوابه العظيم وتوسيعا لرعيته فتم بعون الله على يد عبدالله عامله على كورة البيرة في ذي القعدة سنة ٢٥٠ هـ و ٨٦٤ م[1]»

كان عرب البيرة من سلالة الجند الدمشقي الذي نزلها ايام الفتح وكانوا عصبة ارستقراطية لم ياتلفوا ولم يتمازجوا مع الاسبان الوطنيين بل عاشوا في محيط ملؤه البغض والعداوة المتأصلة فى النفوس فاوقد

(١) «الاحاطة فى اخبار غرناطة» تأليف الوزير لسان الدين الخطيب، مطبعة الموسوعات بمصر سنة ١٣١٩هـ ص١٢

الاسبان في بدء حكم الامير عبدالله حرباعوانا على العرب الذين عصوا قرطبة لسيانتها — وقد أسهبنا في وصفها — وما زالوا بهم حتى اجلوهم مع عميدهم الشاب يحيى القيسي عن «مونت ساكرو» حصنهم الحصين ولقي الزعيم حتفه في العاصمة سنة ٨٧٩ م

بينا كانت الاخطار تهدد العرب من كل جانب وتنزل بهم المصائب من كل صوب جعلت فوضى الاحزاب ترجع الاحقاد القديمة الى الصدور وتشعل جذوتها فكادت الفتن التي قامت بينهم ان تمحوهم في انحاء مختلفة كصيدونا وغيرها. اما في البيرة فتنازع القيسيون واليمنيون حينما ارادوا انتخاب خلف ليحيي فاتفقوا اخيراً وسلموا قيادتهم لزعيم لهم أحسن تدريبهم فثأر ليوم «مونت ساكرو» العصيب[1] باسترجاعه الحصن الذي طردوا منه.

لما غلب اسبان البيرة على امرهم استنجدوا قرطبة فأنجدتهم فهزمهم عرب البيرة هزيمة شنعاء وعقدوا المعاهدات مع عرب رية وجاين وكالاترافا Calatrava وجددوا المذابح فهلعت لها القلوب ووجمت خوفا فاقر لهم الامير عبدالله النفوذ الاكبر في مقاطعة البيرة فكفوا عن الاذى وشملوا البلاد بالهدؤ والسلام.

سرت الاخبار عن المظالم التي ارتكبها العرب والجرائم التي اقترفوها فهاجت العاطفة الوطنية في الاسبان وهاجموهم في البيرة واجبروهم على الالتجاء الى الحمراء لكنهم بعد قتال شديد كسروهم وشتتوا شملهم.

---

(١) دوزي ج ٢ ص ٢١٤

فلما أصاب الاسبان ما أصابهم من البلاء التجأوا الى عمر بن حفصون فانجدهم لكنه هزم فتقهقر وجرح ونسب انكساره اليهم وحملهم ماناوأ تحته من الضرائب الباهظة .

تقلد الزعامة في اهل البيرة العرب رجال اشداء . احدهم الشاعر سعيد بن جودى مثال البطولة العربية فكان كريما شجاعا فصيحا جميلا يحسن الطعان والنزل عالما بعادات الاجتماع العصرية جذابا له لطف النساء وعطفهن .

قلنا ان اسبان البيرة قاتلوا عربها قتالا شديداً لان العصبية الاسبانية بدأت تنمو وتكبر وهنا لا بد لنا ان نؤيد قولنا هذا فنؤكد ان هذه الحركة امتدت الى اشبيلية وايقظتها . كانت اشبيلية مركزاً كبيراً للعلم والمدنية الرومانية منذ العهد القوطي ومقراً لمعظم العائلات النبيلة . اما العرب فلم يقيموا فى المدينة بل فضلوا اسكنى الارباض والحقول فظل الرومان والقوط اعز جانبا فى اشبيلية نفسها من الفاتحين . وكان اهلها اغنياء اصحاب متاجر واسعة ومزارع خصبة وقد اعتنق معظمهم الاسلام الا انهم حافظوا على صبغتهم الاسبانية في عاداتهم واخلاقهم وحفظوا انسابهم الغربية كبني انجلينو وبني سابر يكو Angelino و Sabarico [1] وأخلصوا الولاء للدولة لاعتقادهم انها القادرة على حفظ السلام والامن في الربوع لكنهم كانوا يرهبون العرب سكان الارباض المجاورة لتعصبهم للجنسية والعصبية ولكرههم الشعوب الاعجمية ولتعلقهم بفنون

---

1) دوزى ج٢ ص ٢٣٣

الحرب والقتال ولطاعتهم العمياء لزعماء العائلات المختلفـة . فنظموا انفسهم فرقا فرقا على كل فرقة رئيس . اتخذوا لها الاعلام وعقدوا المعاهدات مع يمني اشبيليـة وبربر مورون Moron حفظا لارواحهم واحتياطا التقلبات السياسة .

تنازع النفوذ فى اشبيلية عائلتان كبيرتان اشتهرتا بالسياسة والقتال والادب وهمـا بنو الحجـاج و بنو خلدون اما بنو الحجاج فقـد تشربوا المدنيـة العربية وآمنوا بها ايمانا خالصا وكانوا ينتسبون الى غيطشة [١] من جهة امهاتهم وذلك ان حفيدته سارة تزوجت عمير بن لخم اليمني فرزقت منه اربعة ذكور كان من ذريتهم بنو الحجاج . وكان بنو خلدون عربا يمانيين من حضرموت . واهتم اعضاء الاسرتين بالتجارة والزراعة والجندية وسكن معظمهم الابراج في الارباض ونزلوا الى قصورهم في المدينة احيانا . وذكر مؤرخو العرب ان بني الحجاج و بني خلدون اقتسموا الرئاسة السلطانية والعلم فى ذلك الصقع [٢] فلمـا اضطربت الاندلس بالفتن وسما رؤساء البلاد الى التغلب كان زعماء اشبيلية المرشحين لهذا الامر على ما حكاه ابن خلدون [٣] امية بن عبد الغافر وكليب بن خلدون الحضرمي واخوه خالد وعبد الله بن الحجاج . وكان الامير عبد الله قد بعث الى اشبيلية ابنه محمداً والنفر المذكورون يحومون على الاستيلاء فثاروا بمحمد بن الامير فانصرف ناجيا الى ابيه . ثم استبدامية بولايتها

(١ دوزى ج ٢ ص ٢٣٥

٢ بن خلدون ج ٤ ص ١٣٦

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ٣٥—١٣٦

على مداراتهم ودس على عبد الله بن حجاج من قتله فقام اخوه ابراهيم مكانه فثاروا به وحاصروه في القصر فخرج اليهم مستميتا بعد ان قتل اهله واتلف موجوده فقتل و بعث الأمير عبدالله هشامَ بن عبدالرحمن عمه واستبدوا به فعقبه كريب بن خلدون الذي توفرت فيه صفات الزعامة فتمكن له الامر الا أنه اضمر العداء لبني امية في قرطبة فنفر عنه الناس .

كل ما قدمناه لك من الحقائق يظهر لنا تماما نوعا من نزاع العرب النبلاء بعضهم مع بعض واستهلاكهم في سبيل الزعامة والمصلحة مهما نتج عن تفرقهم من المصائب الجسيمة والخسائر الفادحة في الاموال والرجال .

حقا ان اسبانيا المسلمة تحركت فيها الفتن من اقصاها الى اقصاها فشرع الزعماء من الاسبان والبربر يرثون ملك بني امية ويعلنون سلطانهم في مختلف الجهات ولم يكن الرؤساء العرب اقوياء سوى في اشبيلية اما في بقية الكور فكان عليهم ان يجهدوا النفس في المحافظة على سلامتهم وان يبذلوا الهمم في تنازعهم البقاء مع الاسبان والبربر فاعلن ابن عطاف استقلاله في Mentesa كذلك فعل ابن سالم في مدينة بني سالم . ورجع البربر الى ما كانوا عليه من الاستمساك بالعصبية والحياة القبائلية في الاسترامادير Estramadura و Alentejo وجعل بنو نفزة Truxillo مقر امارتهم واحتل ابن تاكيت البربري ماردة وهو من مصمودة وكان العدو الاكبر لابن مروان سيد بطليوس لكنه كان لبني ذي النون النفوذ الاعظم في البربر خصوصا في عهد موسى

زعيمهم الرجل الذي وصفه المؤرخون بالجهنمي.[1]

اما المسيحيون الوطنيون الذين اعتنقوا الاسلام وتأدبوا بالاداب العربية فقد أخلدوا للسكينة والسلام فاستقل في مقاطعة Ocsonoba التي تدعى اليوم Algrave (في البورتغال) لزعيم يحيي وذلك في أواخر عهد الامير محمد وكان قد احتل سانتاماريا أولا ثم بسط نفوذه على المقاطعة باجمعها وأشهر من تربع على عرش هذه المملكة المستقلة الصغيرة الامير بكر فلقد كانت له أبهة الملوك وعظمتها واهتم بأمر الجيش ونظمه وسلحه وساعده في تدبير شؤون المملكة مجلس وزراء ووطد سبل الامن فراجت التجارة وأصبحت البلاد في بحبوحة من العيش. وعقد المعاهدات مع ابن حفصون وابن مروان صاحب بطليموس وغيرهما من الزعماء حتى أجبر حكومة قرطبة على الاعتراف به حاكما للمقاطعة. وكان حليفه عبدالملك بن ابي الجواد مسيطراً في الشمال على باجة و Mertola اما جبال Prigo شرقا فخضعت لابن مستانة Mastana حليف ابن حفصون وهي أمنع من عقاب الجو في عرف المؤرخين لحصانتها.

وكان اسياد مقاطعة جاين جميعا حلفاء لابن حفصون يأتمرون بأمره ويطلبون رضاه ويطمعون في صداقته واشهرهم خير بن شاكر صاحب Todar وسعيد بن تزرين سيد Mon leon وبنو هابيل.

---

(١) تجد بحثاً وافياً عن معظم هؤلاء الثوار في ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٣ ١٣٧ ولين بول ص٩٨ ١٠٧
وهوار ج٢ص١٥٢

حكام San Estevan وابن شالية صاحب Cazlona وكان هذا الاخير غنيا يهب الشعراء هبات جزيلة ونهج على منهجه ديسم بن اسحق صاحب مرسية ولورقا فعطف على الادباء ووصلهم الصلات الطائلة .

كان ابن حفصون عدواً رهيباً اذن فاصبح القوم يتطلعون اليه بدلا من ان يوجهوا وجوههم شطر قرطبة فسار اليه الامير عبدالله سنة ٨٨٩ فرجع عنه خائبا ولذا احتل الثائر Ossuna و Estepa واعترف اهالي Ecija بسيادته وقد ملأت انتصاراته المتتابعة قلب الامير خوفا ورعبا سيما وهو لا يعبأ بعهوده فينكثها متى شاءت مشيئته ورأى فرصة ثمينة مناسبة فبعد ان أبرم على نفسه عهداً بالسلام والطمأنينة هاجم بربر بنى ابي حرب وكانوا حلفاء الدولة واتحد مع Servando فاتح حصن Poli ويدعى اليوم Aguilar ويقع فى جنوبي قرطبة .

حينما سقطت Baena صارت معظم معاقل الوادي الكبير تخضع لسلطانه فحلم منذ ذاك ان يكون سيد اسبانيا المسلمة من اقصاها الى اقصاها وتحركت مطامعه الكبيرة فسعى لان يكون عاملا للخليفة العباسي فخابر ابن الاغلب (١) حاكم افريقيا وأرسل اليه التحف النفيسة فقبلها وشجعه وأمله بالولاية عليها والاعتراف به في بغداد . ترى هل يخسر ابن حفصون فى سياسته الجديدة ؟ لا لانه لن يخسر شيئاً بل قد يتسلح بسلاح جديد هو نفوذ الخليفة على المسلمين ، ذاك النفوذ الذي يجعل عرب الاندلس الاقوياء تخضع له لانه يمثل اكبر ظل ديني

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٥ دوزى ج ٢ ص ٢٧١

سياسي في الاسلام ، نعم قد تكون السيادة الاسمية لبني العباس ولكن المسافات البعيدة بين قرطبة وبغداد تمنع تدخلهم تدخلا فعليا وحكمهم البلاد حكما مباشرا .

وجعل ابن حفصون Ecija مقره الحربي وضيق الخناق على قرطبة فحاصرها وسد دونها المذاهب فخلت خزائنها من المال لان العمال يجبون لانفسهم الضرائب ويكنزون الذهب والفضة في صناديقهم فغلت اسعار الحاجيات الضرورية وصارت فاحشة .

لم يكن الامير عبدالله رجلا حربيا ولا بطلا من ابطال النزال بل كان تقيا ورعا قلما يخرج من قصره . فهل يظل مثابراً على سياسته السلمية التي أنتجت الفشل المستمر ام يتخذ خطة اخيه المنذر الشديدة نحو الثائر أم ماذا ؟ عرض على ابن حفصون شروطا كثيرة فاحتقرها وازدراها . ثم نظر نظرة الفاحص المدقق الى خزائنه فاذا هي خاوية خالية واذا جيشه فقير ضعيف منهوك القوى لا يعتمد عليه فعزم سنة ٨٩٠ ان يخاطر بالكل كما يحفظ بالكل . وعاودته أنفته ففضل الموت في ساحة القتال على احتمال عار الذل . وكان جيش قرطبة يتألف من اربعة عشر الفا ليس بينهم غير أربعة آلاف من الجنود النظامية اما جيش ابن حفصون فكان يتألف من ثلاثين الف مقاتل وزحف اليه الامير عبدالله فوصل حصن Polei في ١٥ ابريل سنة ٨٩١

امام هذا الحصن كانت جنود ابن حفصون تتهادي ثملة بخمرة الانتصارات المتوالية وتوقن نفوذها على جيوش قرطبة اما الامير

فكان يحمل آخر تراث للامويين فاما ان يحيا بحياتهم واما ان يموت بموتهم وكان قادته متفانين فى حب آل امية مستميتين فى طاعتهم اشهرهم عبيدالله بن ابي عبدة . فهاجم الجناح الايسر من الجيش الاموي قوات ابن حفصون وضيق الخناق عليها فتقهقرت ثم امعنت فى الهرب . وتحدرت الجنود الاموية كالسيل العرم لا تبقي ولا تذر حتى التجأ الثائر نفسه الى Ecija ورحل عنها الى ارشيدونا فبوباسترو وتم للامير الاستيلاء على حصن Polei وقفل الى قرطبة ماراً بالبيرة . (١)

حفظ انتصار بلي Polei الامير والامويين من الهدم بعد ان فقدوا كل أمل بالحياة . فتضاعفت هيبة الحكومة بما ضمته من البلاد الى احضانها وفقد ابن حفصون نفوذه العظيم فاصبح الاغلبيون لا يقابلون سفراءه بالتجلة والاكرام — كما فعلوا سابقاً — ولا يهتمون بشؤونهم . وانهمك بنو الاغلب فى افريقيا بعدئذ يوطدون سلطانهم فتركوا امر ولايته على الاندلس جانبا وما اعاروها اذنا صاغية ولا قلبا واعيا . واخذ اهل البلاد يقتنعون ان امير قرطبة هو القادر على توطيد الامن والسلام فخضعوا له . قلنا ان ابن حفصون هزم لكنه في الحقيقة لم يقهر فاعاد غزواته المتتابعة واحتل البيره وحمل على ابن جودي وعرب غرناطة حملة شعواء لم تقم لهم من بعدها قائمة وجاس خلال Ecija وبعبارة مختصرة فانهُ استرجع فى سنة ٨٩٢ م ما خسره

---

١) راجع غزوة « بلي » في العقد الفريد ج ٣ ص٢٠٧ ودوزى ج ٢ ، الفصل الخامس عشر

سنة ٨٩١ اذا استثنينا Polei

اعتنق ابن حفصون النصرانية علنا وقام بؤيدها على رؤوس الاشهاد وانقلب على اسلامية المتزعزعة الواهنة سنة ٨٩٩ (١) وتلقب بعد ان تعمد بصموئيل فهاج الرأي العام الاسلامي عليه وأحدث ضجة لدى الفقهاء الذين رموه بكل شائن واتهموه بكل قبيح فتسلل عنه حلفاؤه المسلمون من البربر والاسبان

وكان هم ابن حفصون بعد ذلك ان يحالف الناقين الغاضبين على الدولة فخابر ابراهيم بن قاسم البربري وبني قاسي وملك ليون واتحد اولا مع الحجاج صاحب اشبيلية الا ان هذا نقم اخيرا عليه ورضخ للامير مشترطا ان يتمتع بالاستقلال الذاتي في مقاطعته. وكان محبا للآداب والفنون الجميلة فأم داره العلماء والفنانون من البلاد العربية وبغداد وغص ناديه بالشعراء الاندلسيين .

وقد كان استتباب الامن في الربوع وتمام الصلح مع الحجاج فاتحة عصر جديد للامارة فنشطت حينما رمت اشبيلية سلاحها وهي مركز الثورة في الغرب وساعدها الاقوى فاصبحت كل البلاد الواقعة بين الجزيرة الخضراء Algeziras و Niebla تأتمر بأمر العاصمة وذلك في السنين التسع الاخيرة من امارة عبد الله فاخضع جاين سنة ٩٠٣ وانتصر على ابن حفصون وحليفه ابن مستانة في معركة Guadalbollo واجبر أرشيدونا على دفع قسطها من حقوق بيت

(١) دوزي ج ٢ ص ٣٠٥

المال وقهر Laugne سنة ٩٠٩ و Baeza سنة ٩١٠ . ثم سمي لوب بن قاسي حاكما على Tudele و Tirazou فشاغل هذا ملك ليوز وكونت برسلونه وملك الافار بغزواته المتعددة . ويمكننا ان نقول ان عبد الله ضم شتات المملكة نوعا حينما استأثرت به المنية وهو في الثامنة والستين من العمر غير ان دعائمها لم تكن مؤسسة على الصخر المتين .

تسنم العرش لدى وفاة عبدالله الامير عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله . اما ابوه محمد فقد قتله اخوه المطرف بامر ابيهما فشرع الامير السابق يشمل حفيده بعطفه وحنانه وحبه لما قاساه من توبيخ الضمير وخز الندم . ولقبه ولي عهده . ولما قضى عبد الله كان عبد الرحمن لا يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره فأوجس الناس خوفا على الفتى الشاب من اعمامه واعمام ابيه لانه لم يكن هنالك من قانون شرعي وراثي يمشون بحسبه بل جرى التقليد ان يغتصب العرش اقوى افراد الاسرة المالكة بطشا واعزهم جانبا . والمؤكد انه لم يعارض عبد الرحمن احد في سلطانه بادئ ذي بدء بل فرح به الناس واغتبطت نفوس رجال البلاط لمواهبه السامية وسجاياه الباهرة .

سار عبد الرحمن على منهج سياسي صريح دون ان تتغلب عليه أهواؤه فيتبع سياسة الاستغلاق والابهام كسلفه فشدد النكير على الثوار لساعته وطلب اليهم الخضوع والتسليم وقد أعلن ان من اطاعه أمنه ومن عصاه أعدمه ورتنا يستنتج من هذا الكلام انه قد يجعل بذلك للثائرين سبيلا للاتحاد فيتكاتفون ويتضامنون . لكنه كان قد

آن للفوضى ان تنتهي وان تقف عند حد لان الارستقراطية العربية وهنت وتضاءلت قواهـا ففقدت معظم زعمـائها وقادتها كالشاعر سعيد بن جودي وكريب بن خلدون وابراهيم بن الحجاج ولم يقم بعدئذ بين النبلاء العرب من اجتمعت فيه صفات الرئاسة.

اما الاسبان وهم الحزب الاعظم فى المملكة فلقد انطفأت فيهم جذوة الروح الوطنية التى لبت دعاء ابن حفصون وقادتهم لمقاومـة النفوذ الغريب في البلاد. فهدات نيران الثورة وانطفأ شرارها وخلفهم جيل لم يشعر بما شعر به آباؤهم من العسف والهوان ولا خالجت صدورهم عاطفات الطمع والكبرياء ومناوأة الدولة الاموية حقا انهم كانوا يتألموز وحقا انهم كانوا يشكون حالهم التعسة أما مصدر بلواهم وبؤسهم فكانت مظالم الفوضى والحروب الاهلية التى حرقت المزارع بمواسمها وخيراتها والارض بجناتها والقرى بمسارحها وأنعامها فاخلدوا للسكينة والحياة الهادئة ورجعوا يسعون في مناكب الارض وراء الرزق والمغنم والكسب.

ثم خيم على ربوع البيرة وجاين وارشيدونا السلام ورجع الامن الى نصابه أما في Ser... مهد الثورة فتبدت الفتنة لكن بدأت علائم اليأس والتعب الشديد تدب طلائعها في النفوس فما أقبل الجبليون على الجندية اقبالهم عليها من قبل وطفق ابن حفصون يأتي بالمرتزقة [1] كما فعل امراء قرطبة فلبست الحرب لباسا جديداً وأصبح

(١) دوزى ج ٢ ص ٣٢٣ وراجع « » فى اواخر الجزء الثانى

من هم الجانبين ان يجتذب كل مرتزقه الاخر لان هؤلاء الافريقيين لا يخدمون الا السخي الكريم والمزايد الاخير في دفع الرواتب والاجور. ولم تعد الوقائع دموية فالمرتزقة لا يجازفون بارواحهم في سبيل مطامع الرؤساء واذن فاجتناء الاستقلال بامثال هذه الجنود امر دونه خرط القتاد فقد قامت لامة الاسبانية تطالب به وعجزت عنه فكيف بهؤلاء ؟

اعترف ابن حفصون بسيادة عبيدالله الشيعي الفاطمي [1] حينما سأت حاله وضعف امره على ما يستنتج وكان الفاطميون قد أوغلوا في شمالي افريقيا وطردوا الاغلبيين منها فلم يجن ثمراً طيبا من هذه اذ أبانت وهنه وعدم ثقته باتباعه وذويه. وحاد الثوار من هدف الاستقلال واخطأوه بعدئذ فاصبحوا عصابات عصابات في جاين والبيرة، لا قوة تردعهم عن ارتكاب الموبقات ونهب السابلة ان اصدقاء وان اعداء فعقد الشعب اماله على الامير الشاب في قمع هذه الثورة التي تحولت الى فوضى وايقاع القصاص برجالها.

لم تخسر حركة الثوار هدفها الوطني فحسب بل اصطبغت بصبغة دينية انهكتها فكان ابن حفصون لا يميز اولا بين الاسبان المسيحيين والاسبان المسلمين ولا يعاملهم معاملة جائرة لبست على النصفة في شيء بل كان كل لديه سواء اذهم ابطاله المجازفون بازواحهم في سبيل الدعوة الوطنية فلم اعتنق النصرانية مع بعض كبار قادته كابن مستانه وغيره جعل يسند المناصب العالية لمسيحيي الاسبان دون مسلميهم

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٥

و يشيد الكنائس الفخمة في مدنه وصارت بوباستر ومقراً لروح التعصب التي عرفتها قرطبة قبل ذلك بستين عاما .[١]

فهذا الحماس فى سبيل النصرانية لم يرق في اعين الكثيرين ممن بذلوا النفس من أجل الدعوة الوطنية واستقلال البلاد فهم وان كانوا يكرهون العرب الاغراب فقد احترموا دينهم والدين من اكبر الروابط التي تجمع بين الجماعات الانسانية . وخاف العبيد ان تسود النصرانية في البلاد فيستمتع أسيادهم بالسلطة السابقة للفتح الاسلامي فيصبحون ضحيتها . وأمسى الدين من مفرقات هذه العصبة فاقتتلوا قتالا شديداً فى جاين وغيرها وخمدت فيهم تلكم النار المقدسة التي من شأنها ان تدفع الرجال الى أعمال البطولة الخالدة .

كان الامير عبدالله سيء الظن متقلبا متردداً فقتل ثلاثة من اخوته واثنين من اولاده تسكينا لريبه عدا ما امتاز به من ضعف الارادة التي تصاحب احيانا اصحاب الشخصية الواهنة . اما عبد الرحمن فكان جذاباً يستهوي النفوس لما أوتية من قوة البيان ودهاء السياسة فاستولى على قلوب مواطنيه باعفائهم من بعض الضرائب حينما تسنم العرش ولنذكر ان الشعب كان يعطف عليه لما علمه من فاجعة ابيه فى زهرة الشباب وعضاضة العمر ، ذلك الاب الذي قدم بوباسترو وانخرط في سلك الدعوة الوطنية .[٢] ولذلك كان الصلح اقرب الى الانعقاد فى ايامه من ايام عبدالله اذ كان للامير الجديد من الماضي وشخصيته دعامتان

---

(١) دوزى ج ٢ ص ٣٢٦

(٢) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٧ و دوزى ج ٢ ص ٣٢٨

كبيرة ان لقوام ملكه . ففتحت له المدن الكبيرة أبوابها كاستجة وغيرها وسار يقود جنده ليخضد شوكة العصاة فجنى اكاليل النصر وقاسم الجيش لذة الظفر وبؤس الاخطار والمتاعب .

بدأ عبدالرحمن جهوده بالاستيلاء على جميع معاقل الارستقراطية العربية فوجه أنظاره الى اشبيلية . وكانت تخضع لابن ابراهيم الحجاج الاكبر . اما قرمونة فظلت لمحمد بن الحجاج الابن الاصغر وكان محمد هذا معبود الشعراء لكرمه فلما عاجلته المنية أراد اخوه صاحب اشبيليه ان يضمها اليه فلم يمهله عبدالرحمن البتة وزحف اليه بخيله ورجله فاطاع وعينه من جملة وزرائه وحفظ للاشبيليين تقاليدهم في الحكم الذاتي .

ثم وجه قواه نحو Serina de Re فتفاهم مع سكانها المسيحيين وتساهل في بعض الامور فاكتسب مودتهم فاطاعوه الا اهالي Tolox فانهم دافعوا دفاعا مجيداً وضيق اسطول الدولة على ابن حفصون الخناق فصادر كل المؤن والذخائر التي كانت تصله من افريقيا . ثم قضى هذا الثائر الكبير في سنة ٩١٧ فاحدث نبأ وفاته فرحا عظيما في نوادي قرطبة .

ان البطل الاسباني عمر بن حفصون ناضل في سبيل استقلال بلاده ما ينيف على الثلاثين عاما فكاد يحطم العرش الاموى في قرطبه لكنه رضخ اخيراً لحكم القضاء . نعم لم يتم له طرد اعدائه من وطنه العزيز ولم ينجح بتأسيس اسرة ملكية غير انه كان عصاميا غريبا في ثباته وكفاحه والحق ان اسبانيا لم تلد ارضها مثله منذ أن قام Viriathe

لتحرير بلاده من الكابوس الروماني .

مات ابن حفصون والثورة تستعر نيرانها فابناؤه جعفر وسليمان وعبدالرحمن وحفص ورثوا الكثير من مواهب أبيهم وبطولته فقاوموا الحكومة ثم اجبر سليمان على التسليم وانتظم فى الجندية وابلى البلاء الحسن ضد النافار وليون . اما عبدالرحمن قائد موقع Tolox فاستغنى عن الحروب بقراءة الكتب فقضى شطر عمره الاطيب بين المخطوطات في المكاتب الاندلسية .

واما جعفر فخضع للامير ودفع الضرائب السنوية وكان قويا رهيبا عرف به ذلك عبدالرحمن حينما حاصر بوباسترو سنة ٩١٩ . واراد التقرب من المسلمين الاسبان والتحبب اليهم فاعتنق الاسلام وبهذا ارتكب الهفوة التي وقع فيها ابوه من قبله فاغضب جنوده المسيحيين وتأمروا عليه ثم أعدموه واخوه سليمان راض عن عملهم[1] (٩٢٠) .

ظل سليمان زعيما في بوباسترو الى ان قتل في مناوشة له مع الاعداء سنة ٩٢٧ فعقبه حفص لكن الامير فى يونيو من هذه السنة صمم على اخضاع بوباسترو وحاصرها وقطع عنها جميع موارد الحياة فاحتلها عبدالرحمن فى ٢١ ينـاير (٩٢٧) وعفا عن حفص وقلده منصبا رفيعا في الجيش .

وكان لابن حفصون فتاة تدعى Argenta دخلت احد الاديرة وارتدت الى النصرانية حبا فى الاستشهاد فى سبيلها فأعدمتها الحكومة

---

(١) دوزى ج ٢ ص ٣٤٢

العربية.وقد تقبلت الموت بشجاعة [1] سنة ٩٣١ .

دخل عبدالرحمن الحصن الحصين الذى ظل نحواً من نصف قرن ثابتا امام القوى الاموية وقد أقدم الامير عليه حينما أذل بقية الثوار كابن مستانه فى البيرة والبلنسيين وبني قاسي اولئك الذين أفنتهم الحروب الاهلية وغزوات الشمال فسقطت بين يديه ماردة و باجة وبطليوس و Santarem وكانت لبني مروان الغاليسيين وذلك بعد حصار سنة بتمامها اما Osconoba فنظراً لبعدها وتعلق شمها بحا كمها ابن بكر فقد حالفه عبدالرحمن على ان يدفع له ضريبة سنوية وان لا يجعل بلاده ملجأ للثوار.

ألقى جميع الثوار تقريبا سلاحهم عند اقدام عبدالرحمن ولم يبق عليه حقا كيما يصبح وريث اجداده الكبار الا فتح طليطلة الجمهورية المستقلة وكانت قد دافعت عن استقلالها نحواً من اربع وعشرين عاما بمساعدة بني قاسي وملك ليون وجرد الامير عليها اخيرا حملة قويه بقيادة سعيد بن منذر وزيره ثم أمده وبنى على جبل Djarancas بالقرب من طليطلة مدينة سماها مدينة الفتح ليكون عليها الحصار شديدا طويلا وأمل اهالي الجمهورية خيرا بملك ليون لكن عبد لرحمن شتت شمل جنده وما زال بها حتى فتك الجوع بسكانها فسقطت .

ها قد خضع لعبد الرحمن الثالث العرب والبربر والاسبان وامتد نفوذ الامويين على جميع البلاد الثائرة فحرم النبلاء العرب من التمتع

---

(1) Huart ج ٢ ص ١٥٣

بامتيازات خاصة وحقوق موروثة كانت لهم وأصبحوا مسئولين عن اعمالهم تجاه حكومة حربية يرأسها رجل حازم شجاع فرضخ الاسبان لعدله وبطشه بالاستقراطية العربية وهان عليهم الاخلاص له

وكان هدفه ان يجعل من شعوبه المختلفة امة تتبادل شعوراً واحداً فتعرف مصالحها المشتركة ومنافعها اللازمة فلا تتعدى احزابها بعضها على بعض وقد نجح بسياسته نوعاً على مرور الايام والسنين فأخذت الاختلافات الشعبية تضمحل شيئاً فشيئاً فتمكن من اسناد المناصب للجميع على السواء ولم يحرم منها قدرا .

رضي الاسبان بالحكم الاموي المطلق لأنهم استطابوا الحكومة المطلقة منذ العهدين القوطي والروماني . ويظهر ان فكرتهم بشأن الحرية والاستقلال كانت مبهمة غير ناضجة اذ حركتهم الوطنية الاخيرة لم تؤيد المبادئ القويمة وصدق العزيمة . اهـ .

— ~ —

الفصل الرابع

الدولة الاموية
في اوج علاها

أحدقت بالدولة الاموية في قرطبة نار الثورات التي اشعلتها الاحزاب الاسبانية البربرية والفتن التي اوقدتها الارستقراطية العربية . لكن كان هنالك خطران كبيران جنوبي وشمالي هددا المملكة باسرها . اما الخطر الجنوبي فهو طموح المملكة الفاطمية الافريقية للاستيلاء على الاندلس وادعاء رجالها الخلافه وهم من الشيعة الذين شايعوا عليا وقالوا بامامته وخلافته نصا ووصاية اما جليا واما خفيا واعتقدوا ان الامامة لا تخرج من اولاده وان خرجت فبظلم يكون من غيره او بتقية من عنده [١] فقام عبيدالله الفاطمي وانتسب الى علي واسس دولته الافريقية وطرد الاغلبيين من القيروان ثم تفاوض مع ابن حفصون الثائر وحالفه . فلم تنتج معاهداتهم مع هذا الزعيم عن شئ لان تيار المصلحة كان يدفعه ذات اليمين وذات الشمال فظلوا يحركون ارباب الزعامة عليهم اطمعهم بالخلافه . يدلنا على ذلك ابن حوقل الذي وصفها

---

(١) الشهرستاني —راجع مقاله عن الشيعة —

لهم بقوله « تشتهر اسبانيا بغناها ووفرة خيراتها وجمال طبيعها الفتان وكثرة الضرائب التي يؤديها الاهلون عن يد وهم صاغرون . اما اقوامها فمنغمسون في ترفهم ولهوهم وعبثا يقوون على الدفاع امام الجيوش الفاطمية اذا أتت الديار غازية فاتحة »[1].

لو تم للفاطميين فتح الاندلس فقد يجدون ولا ريب أحزابا تعاضدهم وتاخذ بنصرتهم لا سيما والعامة المسلمون ينتظرون في كل حين مهديا جديداً اذ ان لهذه الفكرة ارضا خصبة في ادمغتهم . وودت الفئة المتنورة من الاندلسيين مساعدة آل فاطمة لما أصاب الفلسفة من الاضطهاد والمظالم فى اسبانيا خصوصا ايام محمد الامير الخامس فنظر اليها الفقهاء بعين الغضب والسخط وكانوا يتألمون من تساهل العباسيين في المشرق وتآليفهم بين قلوب العلماء من جميع الطوائف والاديان والشيع ومباحثاتهم فى مسائل هي الكفر الخالص ، مسائل لا تدرك ولا تستحق الجدل لانها تخوض في امور هي ما وراء الطبيعة Metaphisiques اما الشعب الاندلسي المطيع لاسياده العلماء الطاعة العمياء فكان يكره الفلاسفة ويتهمهم بالالحاد ولم يتاخر البتة عن رجمهم واحراقهم[2] وأجبر المفكرون الاحرار على اخفاء ما تستنبطه ادمغتهم من الاراء في فلسفة الحياة . هذا عبء ثقيل على عاتق هذه العصبة فلا بدع ان ترحب بالذين لم يوصدوا باب الاجتهاد بعد .

سعى الفاطميون بكل قواهم لان يؤسسوا حزبا كبيراً يعتمدون

---

(١) دوزى ج ٣ ص ١٧

(٢) دوزى ج ٣ ص ١٨ — ١٩

عليه في نشر دعوتهم وبث ارائهم فجملوا ابن مسرة المشبع بالفلسفة اليونانية آلتهم في ذلك وقد نجحوا نوعا . لو تم لهم التغلب على اسبانيا لكان للافكار الحرة نصيب طيب من الازدهار وسهم وافر من التساهل الا انهم يصبحون مصيبة عظمى على الشعوب الاسبانية وخصوصا المسيحية منها . فانهم كانوا قد صمموا على افنائها عن بكرة ابيها . نستنتج هذا من اقوال ابن حوقل الذي يدلي برأيه فى كيفية اعدام النصارى فيؤكد ان هلاكهم يستغرق وقتا طويلا .

ها اننا اسهبنا عن الخطر الجنوبي الذي ارهب الامويين وفت في ساعدهم . اما الخطر الشمالي فهو اشد وطأة لانه يمثل لنا نمو مملكة ليون ونشوئها ، تلك القوة التواقة للافلات من الحكم الاجنبي والمتطلعة الى الاستقلال . كانت هذه المملكة ضعيفة واهنة يوم وطئها المسلمون في القرن الثامن وخفقت اعلامهم على ارجائها . فقام من اهليها يومئذ ثلاثمائة شاب وجدوا لهم في شرقي جبال الاستوري Asturies حصنا منيعا يقيهم هجمات الاعداء الفاتحين من العرب . فالتجأوا الى الغار [1] المسمى Cavadonga بقيادة بلايو الشجاع Pelage,Pelayo فمات اصحابه جوعا الى ان بقي في مقدار ثلاثين رجلا ونحو عشرة نسوة مالهم عيش الا من عسل النحل . وما زالوا متمنعين بوعر جبالهم الى ان اعيا المسلمين امرهم واضربوا عن قتالهم وقالوا ما عسى ان يجيء منهم فانه لن تقوم لهم قائمة [2]. ظل بلايو مثابراً على عمله فى تحرير بلاده فأبى

(١) دوزى ج ٣ ص ١٨ — ١٩

(٢) دوزى ج ٣ ص ٢١

اليه الفارون الغاضبون من كل صوب فكثرت جموعه فشرع يهاجم التخوم الاسلامية .

كانت الاستوري صغيرة جداً ايام بلايو وفوفيلا Fofila خلفه غير انها اتسعت رقعتها اتساعا يدعو الى العجب والاستغراب على عهد الفونس الاول فاستولى على مدن عديدة وطرد الحامية العربية منها. فاجبرها على التقهقر نحو الدورو والتاجة . ترى كيف نفسر نجاحه الباهر في فتوحاته السريعة والى ماذا نعزوها ؟ هل كان ذلك لشجاعته وبطولته كما يدعي مؤرخو الاسبان ؟ حينما تزوج الفونس ابنة بلايو تضاعفت قوى المملكة بانضمام مقاطعة Cantabria اليها وهي واقعة على الحدود الشرقية من الاستوري ومتصلة بفرنسة فتسنم عرش البلادين واستفحل امره لكنه وان اتحدت هاتان المقاطعتان في الشمال فيصعب عليهما مناوأة الدولة العربية التي تظل بجناحيها معظم اسبانيا تقريبا ولا يمكننا اذن ارجاع اسباب نهوض الاستوري الى البطولة فحسب بل الى اسباب اخرى يتلمسها الباحث ومعظمها عائد الى الحروب الاهلية التي اشتعلت بين العرب والبربر والجوع القاتل الذي عم اسبانيا . [1]

اعتقد البربر اعتقاداً راسخا انهم هم الذين فتحوا اسبانيا ومهدوا الصعوبات التي كانت تقف في سبيل موسى وجنده العرب ومع ذلك فلما حان اقتسام ثمرة الفتح فاز العرب الاسياد من الغنيمة بحصة

---

(١) راجع اخبار هذه الحروب الاهلية بالتفصيل في دوزى ج ٣ ص ٢١ — ٢٢

الاسد فاعتلوا المناصب الرفيعة في الحكومة وسيطروا على الارضين الخصبة واختصوا انفسهم بمدن الاندلس وقراها الجميلة وتركوا لاصحاب طارق سهول الاستراماديور Estramadure القاحلة والثغور السحيقة وجبال ليون وغاليسيا (جيليقيه) والاستوري الرهيبة [١] فاجبروا على قتال مسيحيي الشمال الثائرين والالتحام معهم في عدة وقائع فتألم البربر لهذه الحال آلاما شديدة وغضبوا واظهروا ما اخفوه في الصدور من الاحقاد وشرعوا يستقبلون الدعاة المحرضين على الفتنة بعين الرضى فاتحدت جموعهم في غاليسيا وماردة و ، CoriaTalaver وغيرها من البلاد الشمالية وطردت العرب لكنهم حينما تقدموا نحو الجنوب لعبت السيوف والحراب في رقابهم واخذ الجوع يفتك في البلاد فتكا ذريعا نحواً من خمس سنين (٧٥٠ ـ ٧٥٥) ولذا رحل اغلبهم الى افريقيا وانضموا الى اخوانهم في طنجة وغيرها من المدن على الشاطئ الافريقي فاغتنم الغاليسيون هجرة البربر واندفعوا نحو البلاد التي اخلوها وفتكوا باعدائهم وقد ارتد اهل البلاد المسلمون يومئذ الى مسيحيتهم الاولى . فخسرت الدولة حوالي سنة (٤ ـ ٧٥٣) كثيرا من مدن الشمال امثال Barga و Porto و Viseu و Astorga وليون وساموره و Ledesma وسلامنكا وانسلخ عنها عدد وفير من الولايات التابعة لسلطانها . [٢]

---

(١) راجع Recherches ج ١ ص ١١٩

(٢) « « ج ١ ص ١٢١

ولما كانت الديار التي اخلاها المسلمون يبابا اكتفى الفونس بالحاق ما جاوره من البلدان كغاليسيا و Bordulie ـ كاستليا القديمة و Liebana ظل ما تبقى من الشمال صحراء جرداء هي اشبه شيء بحاجز طبيعي بين الامويين واعدائهم . وقد سكن بعض البربر الشمال كاستوركا وليون ودانوا بالمسيحية وظلوا محافظين على اسمائهم الاسلامية العربية فدعي كهنتهم بقاسم ومحمود وهلال وايوب ومروان وحجاج [١] . هاقد مرت السنون على خضوع هؤلاء البربر للسلطة الاسبانية ومع ذلك فتراهم شعبا له ميزاته الخاصة فحافظوا على عاداتهم ولهم لهجتهم في النطق بالاسبانية وهم يعرفون بالماراكاتوس Maragatos [٢]

أتم خلفاء الفونس من بعده ما صعب عليه ابرازه لحيز الوجود فقاوموا العرب الواحد اثر الآخر حتى جعلوا ليون عاصمة لهم . وحينما انتشر الثوار في البلاد في منتصف القرن التاسع اخذت مملكة ليون المؤلفة من الاستوري وكانتبري تبسط نفوذها على ما جاورها حتى انتهت الى الدورو فشادت الحصون واشهرها سامورة و Siamancas و Osma و San Esteven de Gormez فذادت عن حوضها بسلاحها وامنت الغارات العربية . اما تلكم الجهات الواقعة بين الدورو والكواديانا Guadiana فكانت ساحة جبلت تربتها بدماء الليونيين والعرب من اجل الاستيلاء عليها هذه . لمحة تاريخية عن هذه الدولة التي نمت من

---

(١) راجع Recherches ج ١ ص ١٢٦

(٢) راجع « « ج ١ ص ١٢٦ — ١٢٧

شرذمة صغيرة تسلحت بالثبات فصارت كبيرة تناصب بني امية في قرطبة العداء .

وقد قام احمد بن معاوية سنة ٩٠١ وهو من بني امية وادعى انه المهدي وجمع حوله الجموع البربرية وطلب الانتقام من الشماليين فالتقى بهم امام الدورو وهزمهم الا ان مرض الحسد الذي اصيب به بعض زعمائهم جعلهم ينفخون في الجنود روح التفرق والخذلان فتخلوا عن مهديهم فهلك . وكان من نتائج هذه الحملة ان وسعت اسباب الخلاف بين المسلمين والليونيين واوغرت صدورهم بالاحقاد فرأى الامر نجة في اسبانيا العربية شوكة وجب اقتلاعها وجرثومة شر لا بد من القضاء عليها وكان الليونيون ان هاجموا مدينة اسلامية ذبحوا اهلها واعملوا في رقابهم السيف فلم يمتازوا بالتساهل الذي تحلى به العرب ، اولئك الذين عقدوا المعاهدات مع المسيحيين [1] . وهنا يقف الاستاذ Dozy متسائلا عما ذا يكون نصيب المدنية الاندلسية لو اصبح الامر يوما لهؤلاء الليونيين الجهلة الاميين . نترك الجواب على هذا السؤال لبحث آخر مستفيض .

اننا بسطنا فيما تقدم ما وجب على عبد الرحمن الثالث القيام به من المهام الصعبة الشاقة يوم تسنم العرش فكان عليه ان يخضع قومه ويرد غارات اهل الشمال ويرمي بالفاطميين الطامعين بالاندلس الى الوراء فلا يدع لهم سبيلا لعبور المجاز الى العدوة الاوربية . فقد اطفأ عبد الرحمن الثورة في البلاد ووطد الامن في الربوع فلنرى الان كيف قاتل اعداءه

---

(١) دوزي ج٣ ص٣١

الالداء في الشمال والجنوب .

كان عبد الرحمن لايود قتال اهل ليون فاجبروه على ذلك اذ قام مليكهم اوردونو الثاني Ordono II وخضب ماردة بدماء ابنائها واعدم حامية حصن Alang وسبي [١] نساءه فهابه سكان بداجوز (بطليوس) واطاعوه وهادوه . ثم رجع الى ليون ماراً بالتاج والدورو. اما الديار التي جاس خلالها الاعداء فلم تكن قد رضخت لاحكام الدولة تماما ولذا كان بوسع أمير الاندلس ان يغض النظر عما فعله اوردونو الثاني لكنه احب ان يستولي على تلك القلوب الثائرة ويقتنص حبها بالدفاع عن بلادها والذود عن حياضها فارسل في يوليو سنة ٩١٦ صائفة ابن ابي عبده الى الشمال فقفلت غازية [٢]

طلب سكان التخوم في السنة التي تلت (٩١٧) من الامير عبد الرحمن ان يوقع بالليونيين الذين حرقوا ارباض Talavera على التاج فجهز صائفة ثانية يقودها ابن ابي عبده نفسه وامره باحتلال حصن San Estevan de Gromez وكان جيشه يتالف من مرتزقة طنجه واهل الحدود والثغور من الاسبانيول فلما هاجمهم اوردونو الثاني بصفوفه تقهقروا ولاذوا بالفرار فدب الهلع في الجنود وسرت اليهم الفوضى فثبت ابن ابي عبدة الى ان قتل وانسحبت البقية الباقية من جيوشه الى البلاد الاسلامية [٣]. لم

---

(١) ويدعوه ابن خلدون بحصن الحنش ج ٤ ص ١٤١

راجع العقد الفريد ج ٣ ص ٢٠٩ — ٢٢٧ . هذه الصفحات تتضمن وصف جميع غزوات عبد الرحمن الثالث

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤١

(٣) لين بول ص ١٢٠ دوزى ج ٣ ص ٣٥

تبد على عبدالرحمن امارات اليأس لهذا الانكسار بل شرع يعد حملة قوية يثأر بها فحالت معضلات افريقيا السياسية موقتا دون تحقيق اماله في الشمال

كان الفاطميون اذذاك يفتحون موريتانيا ومتى اصبحت لهم فيها الكلمة النافذة وجهوا وجههم ولا ريب شطر اسبانيا فلذا وجد من الضروري ان يضمن لهذه المقاطعه استقلالها وان يتخذها سداً منيعا . وما كان بوسعه ان يعلن الحرب عليهم وبلاده مهددة في الشمال بل راى من الحكمة وسداد الراي ان يساعد تحت طي الخفاء اولئك الذين ارادوا انقاذ هذه المقاطعة من الوطنيين . فسنحت له الفرصة حينما هاجم الفاطميون امير نيقور سعيد الثاني[1] (٩١٧) وكان قد طلب اليه الخليفة الفاطمي ان يخضع فابى فارسل اليه حاكم تاهرت كيما يخضد شوكته . فاراد سعيد مناجزته الوقيعة قبل ان يبدأه بها القائد المهاجم لخلو بلاده من الحصون فباء بالخيبة وقتل في ساحة النزال . وقد دخل ابناء سعيد الثاني الثلاثة الى ملقا كيما يتدبروا امرهم ويناظروا عن كثب المأساة التي كان يمثلها الفاطميون في بلادهم . ثم اخلى جيش الاحتلال نيقور بعد ان مكث فيها نحواً من سنة فعاد اليها صالح الابن الاصغر لسعيد الثاني واعلن سيادة الامويين وامارته عليها فامدوه بالجند والاسلحة والاعلام

جهز الامير عبدالرحمن جيشا بقيادة بدر حاجبه لمناوأة الشمال وذلك بعد ان تم له ما اراد في الجنوب . وكان اوردونو الثاني وسانشو الفاري

---

(١) دوزى ج٣ ص٢٦ — ٢٧ فما بعد
نيقور بلدة في الريف تبعد نحوا من خمس مراحل عن الشاطئ

قد هدما Tudele Najera [1] وحرقا جامع Valtierra فسارت الصائفة وهزمت ليون دفعتين في معركة Mutonia وقهر الشماليين تماما . تسلم عبدالرحمن القيادة العامــة منذ يونيو سنة ٩٢٠ فاحتل Osma وحرقها وظفر بحصن San Estevan ثم اسند الى محمد بن ابي حاكم Tudele ان يحتل Carcar المحطة التي كان يهجم منها سانشو ذلك البلد الامين فالفاها خالية . ولما أدرك سانشو واوردونو أنه لاقبل لهما بالثبات امام المسلمين اتحدا وتضامنا فالتقى بهما الامير في Val di Juinguer واجبرهما على الخوض معه في معركة فاصلة فشتت جيوشهما واسر كثيراً من الزعماء والــكهنة [2] وصارت النافار خرابا لان الجيش العربي لم يبق عليها ولم يذر وكثرت لديه الغنائم حتى اتلف قسما منها

كل هذه الانتصارات التي احرزها عاهل قرطبة لم تؤدب اعداءه بل ظل سانشو النافاري يناوئ الحكومــة العربية فاحتل Viguera واعدم حاميتها ومعظمهم من شبان العائلات الاسلامية النبيلة فاحدث هذا غليانا كبيراً في الاندلس واهاج صدور القوم فزحف اليه عبدالرحمن ولم ينتظر موعد الصائفة (ابريل سنة ٩٢٤) وكانت لاسمه هيبة في النفوس فاخليت الحصون قبل مجيئه اليها . وقد جرب سانشو مراراً ان يصد هجماته فلم يفلح فهدم بامبلونا واحرق كاتدرائيتها وبذلك ادمى قلب النافار وهنا لابد ان نتساءل عما حل بليون فنقول ان مليكها اوردونو

---

[1] لين بول ص ١٢٠ دوزى ج٣ص ٤٠ — ٤١

[2] لين بول ص ١١٠ دوزى ج٣ص٤٣ — ٤٤

الثاني قد توفى فعقبه Froila فقضى سنة ٩٢٥ ومن ثمة اخذت هاتيك البلاد تتخبط في ديجور من الحروب الاهلية المؤلمة[١]

كان عبد الرحمن يطمع بالخلافة لما لها من القوة المعنوية في نظر المسلمين يومذاك فقد دُعي اباؤه من قبله بالامراء والسلاطين لكن لما ضعف امر العباسيين في المشرق وافترقت تلك الدولة الكبيرة الى دويلات صغيرة واصبحت السلطة لامير الامراء في بغداد ولغيره من الموالي في بقية البلدان التاث امر الخلافة فكان الخليفة شبحا دينيا فحسب. ثم لما بلغ الامير ان المقتدر العباسي قتله مؤنس المظفر سنة ٣١٧ هـ تلقب بالقاب الخلافة وامر بان يدعى بالخليفة الناصر لدين الله[٢]. (فى ١٦ ينـاير سنة ٩٢٩) وقد ارهب بذلك الافريقيين العصاة فاعترف بسيادته محمد بن الخزر رأس قبيلة مغراوة ثم استمل ابن ابي العافية زعيم مكناسة وحليف آل فاطمة في افريقيا. والظاهر ان الحروب الشمالية الاهلية التي استعرت نارها سنة ٩٢٩ وسنة ٩٣١ جعلت للناصر الفرصة التامة في اتمام امانيه وما صبت اليه نفسه من الاصلاح الداخلي ثم انتهت هذه الحروب بتثبيت راميرالثاني على عرش ليون وكان شجاعا يضمر للمسلمين حقداً شديداً فساعد جمهورية طليطلة الثائرة على الامويين فهزمه جند العرب سنة ٩٣٣

اما معضلات الشمال فاخذت تلبس شكلا جديداً وتظهر بمظهر

---

(١) دوزى ح ٣ ص ٤٥ — ٤٨ ابن بول ص ١٢١

(٢) المقرى ح ١ ص ١٦٥ ، كوبه ح ٢ ص ٨٧ ، هوارت ج ٢ ص ١٥٤ دوزى ج ٣ ص ٤٨ — ٤٩ ، العقد الفريد ج ٣ ص ٢٠٩|٢ لين پول ص ١٢٢

غريب يستلفت الانظار فعقد محمد بن هاشم التوجيبي الثائر في سرقسطه معاهدة مع رامير ملك ليون ضد الناصر [١] ثم انضم اليها غرسية عاهل النافار حليفا فاصبح الشمال اذن كتلة واحدة تجاه الدولة فسار عبدالرحمن بجيشه سنة٩٣٧ واحتل Calatayud واخذ يستنزل النافار وسرقسطه الى ان خضعا له .

فعفا عن هاشم واعترفت طوطة ام غرسية والوصية عليه بسلطة قرطبة .

قضى الناصر نحواً من سبعة وعشرين عاما من حياته وهو يجني اكاليل الغار حتى اصبحت اسبانيا من اقصاها الى اقصاها خاضعة له سوى مملكة ليون وبعض كاتلونيا . ووثق بالموالي والعبيد اولئك الذين كانوا آلة صماء عمياء بين يديه يلعب بهم كيفما شاء فدعاهم (الصقالبة) [٢] . وكان يطلق هذا الاسم في الاصل على الاسرى السلاف مما وقع في قبضة الجرمان وبيع الى تجار اسبانيا فعمّ الاسم بعد ذلك جميع الغرباء من الجنسيات المختلفة في الجيش والبلاط . وكان صقالبة الخليفة من الغاليسيين والفرنسويين والالمانيين واللمبارديين وغيرهم من سكان شواطئ البحر الاسود فحملهم القرصان الاندلسيون الى المرافئ الاسبانية باموال اليهود . اما الخصيان الذين خدموا في قصور النساء فجلبوا من فرنسا حيث كان لليهود بهم

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٢ ، دوزى ج ٣ ص٥٢ — ٥٣

(٢) دوزى ج ٣ ص ٥٩

ايضا تجارة واسعة وسوق رابحة . وقد اشتهرت مدينة Verdun وبعض الولايات الجنوبية بذلك . ثم كان هؤلاء الصقالبة الصغار يدينون بدين اسيادهم العرب ويتكلمون لغتهم العربية ويتأدبون بآدابهم ويقلدونهم في عاداتهم واحوال اجتماعهم فاصبحت لهم المكاتب القيمة ونبغ منهم طائفة حسنة من الشعراء

كثر الصقالبة في بلاط الامراء السالفين لكنهم توافر عددهم واشتد جمعهم ايام عبد الرحمن الثالث فبعض المؤرخين يقولون انهم بلغوا نحواً من ٣٧٥٠ صقلبي ويخالفهم غيرهم فيرون انهم كانوا ٦٠٨٧ نفسا ويدعي آخرون انهم ولا ريب بلغوا ١٣٧٥٠ رجلا فنستنتج من ذلك كله ان هذه الارقام احصيت في اوقات مختلفة عدا عن الاقبال الذي حازوه وقد اسندت اليهم المناصب الرفيعة مدنية كانت اوعسكرية واجبرت الارستقراطية العربية على الخضوع لهم والاذعان لاوامرهم

قهر النبلاء من صنيع عبد الرحمن واضمروا له السوء فلما جهز جيشا يتألف من مئة الف مقاتل ليغزو به ليون ويضربها ضربة قاضية اسند قيادته الى نجدة احد صقالبته فالتهبت صدور الضباط العرب لذلك غيظا وحقداً . وسارت الحملة الى الشمال سنة ٩٣٩ بطريق Salamancas فلاقاها راميرو الثاني ملك ليون مع حليفته طوطا في الخندق ثم نشب القتال بين الجيشين فتقهقر الضباط العرب بجندهم الى الوراء مدعين الهزيمة فلحقهم الاعداء المهاجمون وكسروهم شر كسرة

فباد من الجيش العربي فرق كاملة العدد و العُدد وكاد الخليفة ان يقتل ولولا الحروب الاهلية التي شغلت رامير الثاني عن اجتناء ثمرة انتصاره لصعب تلافي الامر على عبدالرحمن . ويقول صاحب الاخبار المجموعة انه لو ظل الناصر مسيراً بتلك العزيمة التي عرفناها به اول امره لحكم الشرق والغرب لكن حينما مال للملاهي واوكل الامور للمقربين منه دون اربابها امثال نجدة وغيره اصاب الدولة ما اصابها في معركة الخندق المؤلمة . وقد اثرت هذه الوقيعة اثراً سيئا على مشاعر الخليفة حتى انه لم يغز بعدها بنفسه (١) . ومما ساعد الخليفة على اصلاح حاله ثورة الكاستيل التي اشعل نارها على ليون Ferdinand Gonzalez وكان يرمي الى الانفصال والاستقلال

كادت الايام ان تحمل اسبانيا ما لاطاقة لها به من الالام في افريقيا ويصيبها ما اصابها في الشمال في معركة الخندق لان عمال عبد الرحمن

---

(١) Recherches ج ١ ص ١٦٣ وها مايقوله صاحب الاخبار المجموعة نقلا عن المسعودى وابن خلدون : ولكنه عفا الله عنه مال الى اللهو واستولى عليه العجب فولى للهوى والغناء واستمد بغير الكفاة واغاظ الاحرار باقامة الانذال كنجدة الحيرى واصحابه الاوغاد فقلده عسكره وفوضه جميع اموره والتجأ اكابر الاجناد ووجوه القواد والوزراء من العرب وغيرهم الى الخضوع له والوقوف عند امره ونهيه وحال نجدة حال مثله في غيه واستخفافه وركاكة عقله فتواطأ اهل الحفاظ من رجاله ووجوه اجناده على ما كان من انهزامهم في الغزوة التي غزاها عام ستة وعشرين وسماها غزاة القدرة لاحتفاله فيها وعظيم مشهدها فهزم فيها اقبح هزيمة واتبعهم العدو اياما يأسرونهم ويقتلونهم في كل محلة فلم يكد ينجو منهم الا قوم جمعوا اصحابهم على الويتهم وتخاصوا الى بلداتهم فلم تكن له بعدها غزوة بنفسه وخلا بلداته ومبانيه .

Dozy. Appendice No IX وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٢

شرعوا يقاتلون بعضهم البعض بدلا من ان يتضامنوا ويتحدوا ويوثقوا عرى الالفة بينهم امام القوى الفاطمية غير ان الثائر البربري ابا زيد اشغل الفاطميين عن الاندلس وكان شابا نشيطا درس الفقه وبث تعاليم الحرية في البربر واتخذ القيروان مقر اعماله ودعى قوم الى مذهب مالك . وقد احرز الانتصارات الباهرة على اعدائه فاحاط نفسه بابهة ملكية ونسي مبادءه التي قام من اجلها فتخلى عنه حزبه وقبض عليه الفاطميون فقضى سجينا . ان هزيمة ابي زيد آلمت عبد الرحمن كوقعة الخندق اذ بها استرجع الفاطميون نفوذهم في افريقيا واجبروا اعمال الناصر على الالتجاء الى قرطبه (١) .

صوّب آل فاطمة سهامهم الواحد اثر الآخر الى صدر الاندلس فضاق الخليفة ذرعا وحالف Hugues de Provence سيد ايطاليا الناقم عليهم لانهم غزوا Genes ثم عقد امبراطور القسطنطينية المعاهدات مع الناصر آملا ان يكون عونه الاكبر في استرجاع صقلية من القائم الفاطمي (٢) وكانت صقلية المحطة الحربية لهم في غزو الشواطي الاسبانية كالمرية وغيرها

لا ريب ان لعبد لرحمن المقام الاسمى بين جميع الامراء الاندلسيين، اتى فالفى المملكة تفتلها الفوضى وتمزق احشاءها الحروب الاهلية وينشب الزعماء في صدرها مخالب اطماعهم ويهددها الشمال بالغزوات العديدة والجنوب بغارات الافريقيين فاعلى منارها وضمن لها استقلالها

---

(١) دوزى ج ٣ ص ٦٧ —٧٠

(٢) دوزى ج ٣ ص ٦٨ وص ٧٦ — ٧٧ وسوارت ص ١٥٨

ووطد الأمن والسلام في ربوعها [١]. كانت الخزينة خالية والمالية في حالة الفقر فاغتنت وقد قسمها اقساماً ثلاثة. فجعل الثلث الاول ويقدر بمئتي وخمسة واربعين الفا من الذهب للنفقات العمومية والثلث الثاني للبناء والعمران وادّخر الثالث في الخزينة احتياطا [٢] واحصيت مالية الاندلس في سنة ٩٥١ فاذا هي نحو من عشرين مليون من الذهب فكان الناصر في الاندلس وبنو حمدان في العراق اغنى الامراء والملوك في هاتيك الاوقات. ثم كان للزراعة والصناعة والتجارة والعلوم والفنون النصيب الاوفر من التقدم والازدهار فاقيمت مشاريع الري المؤسسة على الطرق والاساليب العلمية في الارباض والمزارع وصارت ضرائب الواردات والصادرات معظم ما تتقاضاه الخزينة العمومية ويشهد لنا بذلك تقرير لرئيس الجمارك العمومية نفسه [٣]

ضاهت قرطبة بسكانها الذين يعدون نحوا من نصف مليون وجوامعها الثلاثة آلاف وقصورها الفخيمة وحماماتها الثلاثمائة وارباضها الثمانية والعشرين بغداد في سعادتها وعظمتها وقد طار صيتها الى اقصى جرمانيا فدعتها الشاعرة السكسونية Horswitha التي اشتهرت في النصف الاخير من القرن العاشر — زينة العالم — [٤]

واتصلت العمارة بها ايام بني امية ثمانية فراسخ طولا وفرسخين

---

(١) ص ١٢٧ دوزى ج ٣ ص ٩٠

(٢) المقرى ج ١ ص ٣٤٥

(٣) دوزى ج ٣ ص ٩١ عن ابن حوقل

(٤) دوزى ج ٣ ص ٩٢

عرضا وذلك من الاميال اربعة وعشرون في الطول والعرض ستة . وكل ذلك ديار وقصور ومساجد وبساتين بطول ضفة الوادي الكبير ويقول المقري في وصف قصر الخلافة ما ياتي :

« ثم ابتدع الخلفاء من بني مروان منذ فتحوا الاندلس في قصرها البدائع الحسان وآثروا فيه الآثار العجيبة والرياض الانيقة واجروا فيه المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافاة البعيدة حتى اوصلوها الى القصر الكريم واجروها في كل ساحة من ساحاته وناحية من نواحيه في قنوات الرصاص تؤديها منها الى المصانع صور مختلفة الاشكال من الذهب الابريز والفضة الخالصة والنحاس المموه الى البحيرات الهائلة والبرك البديعه والصهاريج الغريبة في احواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة » [1] واشتهر ايضا من القصور الكامل والحائر والروضة والزاهر والمعشوق والوستق والتاج والبديع .

ابتدأ الناصر في نوفمبر سنة ٩٣٦ بعمارة الزهراء وظل في بنائها خمسة وعشرين عاما . قال ابن خلكان في وصفها « ان الناصر انشأها بالقرب من قرطبة ومسافة ما بينهما اربعة اميال وثلثا ميل وطول الزهراء من الشرق الى الغرب الفان وسبعمائة ذراع وعدد السواري التي فيها اربعة آلاف سارية وثلثمائة سارية وعدد ابوابها يزيد على خمسة عشر الف باب [2] » وكان يتصرف في عمارة الزهراء كل يوم من الخدم

---

(١) المقري ج ١ ص ٢١٦

(٢) ابن خلكان ترجمة المعتمد بن عباد ، المقري ج ١ ص ٢٤٥ « « ج ١ ص ٤١٧

والفعلة عشرة آلاف رجل ومن الدواب الف وخمسمائة دابة [١] وكان من الرجال من له درهم ونصف ومن له الدرهمان والثلاثة وجاب اليها الرخام الابيض من المرية والمجزع من رية والوردي والاخضر من افريقيا واستدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر فوفدوا عليه من بغداد والقسطنطينية واتخذ فيها محلات للوحوش فسيحة الفناء متباعدة السياج ومسارح للطيور مظللة الشباك واتخذ فيها دوراً لصناعة الآلات مثل آلات السلاح للحرب والزينة وغير ذلك من المهن [٢].

ويقول ابن حوقل «انه لم يكن لقرطبة في المغرب شبيه في كثرة الاهل وسعة الرقعة وهي حصينة بسور من حجارة [٣]» ثم اشتهرت بقنطرة طولها ثمانمائة ذراع وارتفاعها ستون ذراعا وعدد حناياها ثمانية عشر حنية ولها من الابراج تسعة عشر برجا [٤] بناها السمح بن مالك الخولاني واكملها عبد الرحمن بن عبيدالله الغافقي .

كانت قوى عبدالرحمن الثالث رهيبة فنازع اسطوله الكبير سلطان الفاطميين في البحار — خصوصا البحر المتوسط — وانتصرت جيوشه المنظمة في الشمال والجنوب وخطب مودته امبراطور القسطنطينية وملوك ايطاليا وفرنسا والمانيا [٥] وانتشرت شرطته في اطراف البلاد

---

(١) المقرى ج ١ ص ٢٢٤، دوزى ج ٣ ص ٩٢

٢ ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤

٣ معجم البلدان تأليف ابي عبدالله ياقوت الحموى الرومى ، طالع عن قرطبة ... ج ٥ للقلقشندى

٤ المقرى ج ١ ص ٢٢٢ — ٢٢٤

٥ المقرى ج ١ ص ١٧٠ . ابن خلدون ج ٣ ص ٩٤

وانحائها فالمّ بكل صغيرة وكبيرة . وكانت الغاية التي يرمى اليها هي ايجاد توازن سياسي يضمن للمملكة به سلامتها وحقوقها فتم له ماراد بمعاهداته العديدة ، وهب لان يكوّن من امتهِ شعبا واحداً متحداً فتساهل واستشار اناسا لا يدينون بدينه كما يستفيد من آرائهم وافكارهم وكما يلم بالموضوع الذي يبحث فيه من جميع وجهاته ويصفه دوزي بقوله انهُ لعاهل اولى به ان يكون من حكام هذا العصر بدلا من ان يكون من حكام القرون الوسطى[1] .

سار على منهج الناصر لما قضى الحكم المستنصر (١٦ اكتوبر سنة ٩٦١) الشاب المولع بالآداب واقتناء الكتب القيمة النادرة الجامع لها في انواعها فبعث فى شرائها رجالا من التجار الى بغداد ودمشق والقاهرة والاسكندرية حتى جلب منها الى الاندلس مالم يعهدوه من قبل وارسلت له الكتب من الشام وبلاد فارس قبل ان تصل الى احد في المشرق[2] وجمع بداره الحذاق في صناعة النسخ والمهرة فى الضبط والاجادة في التجليد فاوعى من ذلك كله ، واجتمعت بالاندلس خزائن من الكتب لم تكن لاحد من قبله الا ما يذكر عن الناصر العباسي المستضيء ، ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة الى ان بيع اكثرها فى حصار البربر وامر باخراجها وبيعها الحاجب واضح من موالي المنصور ابن ابي عامر ونهب ما ابقى منها عند دخول البربر قرطبة واقتحامهم

---

(١) دوزي ج ٣ ص ٩٤

(٢) طبقات الامم للقاضي ابى القاسم صاعد بن احمد الاندلسي مطبعة السعادة بمصر ص١٠٢ — ١٠٣ راجع كوبه ج ٢ ص ١٨٠

اياها عنوة [١] .

اما عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب فاربع واربعون فهرسة وفي كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها الا ذكر اسماء الدواوين لا غير . وكان عدد كتبه اربعمائة الف مجلد وهو ثقة في معرفة الرجال والاخبار والانساب [٢] وقلما يوجد كتاب في خزائنه الا وله فيه قراءة او نظر وهي ذات اعتبار .

وكان الحكم المستنصر خليفة وسيع الصدر نير الفكر لم يضطهد الجديد من الرأي ولا حاربه بسلاح الاستبداد والوعيد ولا كال له ما كاله بعض اسلافه من انواع المظالم والاحن . فلجأ اليه العلماء والبحاثون والفلاسفة وحماهم من شرور الجهلة المتعصبين وازدهرت العلوم في ايامه فكثرت المدارس الابتدائية ويقول دوزي ان الاندلسيين عموما كانوا يعرفون القراءة والكتابة سوى القليل منهم بينما كانت اوربا المسيحية امية اذا استثنينا رجال الدين والكهنة [٣] وقد اسس في قرطبة سبعة وعشرين مدرسة مجانية لتعليم اولاد الفقراء ودفع رواتب الاساتذة من جيبه الخاص . وام جامعة قرطبة الوف الطلاب ممن درسوا الفقه والشريعة ويغلب على الظن ان الدروس كانت تعطى في المسجد الجامع . ومن اساتذتها اذ ذلك ابو بكر بن معاوية القرشي النابغة في علم الحديث وابن القوطية امام النحو والقالي استاذ الآداب [٤] . اهـ

---

١) المقرى ج ١ ص ١٨٤ — ١٨٥ ، ١٨٠

٢) المقرى ج ١ ص ١٨٤ ، دوزى ج ٣ ص ١٠٨ ، ان الحكم بعث في كتاب الاغانى لمصنفه ابى الفرج الاصفهانى وكان نسبه من امية الف دينار من الذهب

(٣) دوزى ج ٣ ص ١٠٩ هؤارت ج ٢ ص ١٥٧

٤) القالى صاحب الامالى الكتاب المشهور في الآدب العربى)

الفصل الخامس

الحاجب المنصور

كانت جامعة قرطبة مورداً عذباسائغا لانتهال العلم واقتباس الفنون فاتاها الطلبة من كل فج في اسبانيا وغيرها من البلدان المجاورة ، وقد اطل من بينهم شاب عرف بدهائه وبطولته ، فلقبه مؤرخو الغرب في عصرنا هذا « ببسمارك العرب » في القرن العاشر للميلاد .

وفي يوم صفت سماؤه ورق نسيمه ذهب ثلاثة من طلبة العلم يتنزهون ويروحون النفس في حدائق قرطبة وانهم ليتجاذبون اطراف الحديث ويستنشقون صحائف المستقبل الغامضة — كما هو شان التلامذة فى كل حين — اذ قام من بينهم فتى ذو خيال واسع خصب وقال لرفقائه « لو اصبحت يوماما امير اسبانيا وافضى اليّ الامر فما تختارون من المناصب ؟ فقال احدهم توليني قضاء كورة رية وهى مالقة واعمالها فانه ليعجبني هـذا التين الذي يجيء منها ، وقال آخر توليني حسبة السوق فاني احب هذا الاسفنج ، وقال الثالث اذا افضى اليك الامر ياصاح فأمر ان يطاف بي قرطبة على حمار ووجهي الى الذنب وانا مطلي بالعسل ليجتمع علي الذباب والنحل وافترقوا على هـذا . »

ويدعي المراكشي ان كلا من هؤلاء بلغ أمنيته على نحو ما طاب [١] .
انه مهما يكن من شأن هذه القصة وصحة روايتها فهي تظهر لنا قوة المخيلة التى تفرد بهاذاكم الشاب والاماني التى تطلبها والروح الخافقة في صدره .

كان هذا الفتى المقدامة يتطلع الى العرش وقد ملك ذلك عليه جميع حواسه ، ولكن هنا يتبادر الى الاذهان سؤال يعقبه علامات استفهامية كثيرة الا وهو: كيف امكن ذلك الطالب الوضيع ان يختلط باهل البلاط في قرطبة ويعتلي عرشا اسس على الجماجم واهرقت من اجله دماء غزيرة ؟ كل هذا سينجلي معنا اذا امعنا النظر في تاريخ حياته المفعم بالحوادث . اما اسمه فهو ابو عامر محمد المعافري وجده من العرب الذين فتحوا اسبانيا بقيادة طارق بن زياد . وقد ولد في قرية تسمى طرّش Torro على ضفاف نهر اروا Guadiro من اعمال المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ، ورحل الى قرطبة وتادب بها على اشهر رجال العصر كالقرشي والقالي وابن القوطية . ومما يؤثر عنه انه كان ولوعا بالتاريخ محبا لقراءة سير اولئك الذين بلغوا من المجد مراتب رفيعة وهم من اصول دنيئة فقيرة . ولقبه اخوانه الطلاب بالمعتوه وهزأوا منه يوم كان يصرح بما تتوق اليه نفسه الا انه اظهر اخيراً من المواهب السامية وضروب الشجاعة والتهور والثقة بالنفس والقدرة على اغتنام الفرص ماجعله في مقدمة الرجال المصاميين .

---

(١) المراكشي ص ١٥ دوزى ج ٣ ص ١١١ — ١١٤

ثم بعد ان اتم دروسه اقتعد دكانا [١] عند باب القصر يكتب فيه المعاريض لاصحاب الحاجات لدى الخليفة وعين بعد ذلك مأموراً بسيطا في احدى محاكم قرطبة فلم يتفق مع الرئيس القاضي ، لاختلاف مشاربهما فشكاه هذا للوزير المصحفي الذي نقله حالا لادارة املاك عبدالرحمن الفتى ابن الخليفة الحكم . كان ابو عامر اذ ذاك في السادسة والعشرين من عمره ، وكان جميلا لطيفا اديبا فوقع من نفس السيدة صبح زوج الخليفة موقعا حسنا بما استمالها به من التحف وحسن الخدمة [٢] فجعله مديراً لاملاكها ايضا ونبهت عليه الحكم فولاه قضاء بعض المواقع فظهرت منه نجابة فترقى الى الزكاة والمواريث باشبيلية وتقلب في غير ذلك من المناصب حتى اصبح مدير المال او ناظر المالية في عرفنا اليوم . وقد اكتسب بمنصبه هذا رضاء الكثيرين لانه امدهم بالمال الوفير حين فرغت جيوبهم وخزائنهم ووطد عرى الصداقة مع السيدة صبح حتى اخذ الاندلسيون يعرضون بهما .

اما سياسة ابن ابي عامر فكانت التقرب من الشعب وعمال الحكومة فتم له ما اراد اذ جعل من جيش المأمورين السنة شكر لا تسبح الا بحمده ولا تتغنى الا بكرمه ونبل اخلاقه وصفاء سريرته .

واتصل بالقادة ورجال الحرب نظراً الى اشتعال لهيب الثورات في موريتانيا وذلك ان عبدالرحمن الناصر حينما ثبت سلطته في هاتيك الاصقاع كان يهاب اطماع الفاطميين في الاندلس ، غير انه لما وجهوا وجوههم

---

(١) المقرى ج ١ ص ١٨٧ ، كوبه ج ٢ ص ١٨٢

(٢) المقرى ج ١ ص ١٨٧

شطر مصر، وتم لهم فتحها (٩٦٩م) واختطوا القاهرة عاصمة لدولتهم لم يمد ليهاب اصحاب الدعوة العلوية . وقد ود الحكم لو يخلي الاصقاع الافريقية لانها كانت تثقل عاتق الخزينة بالاموال الباهضة فابى ان يفعل هذا لئلا يخسر نفوذه عند الافريقيين فيعاودون سيرتهم الاولى ويغزون الشواطيء الاسبانية . فاشعل حربا ضروسا على الامراء الادارسة حلفاء الفاطميين [1] وهؤلاء قوم لا يميلون الا مع المصلحة ولا يغامرون الا من اجل المادة والمنفعة فوجدوا في آل فاطمة امة تتطلب منهم اموراً كثيرة بعكس الامويين الطامعين في تعزيز ملكهم وبسط نفوذهم في العدوة الافريقية حفظا للاندلس من الغارات الخارجية . ثم اخضعهم الحكم جميعا الا حسن بن كنون الذي كاد ان يطرد آل امية من المغرب فارسل له الحكم « القائد غالبا » وقد بذل هذا اموالا طائلة في سبيل الاستيلاء على قلوب الزعماء والانضمام الى صفوفه والتخلي عن الثائر . ولكنه تحقيقا للغاية التي صرفت الاموال من اجلها ، بعث الخليفة ابن ابي عامر مفتشا وقاضيا للقضاة هنالك وطلب من اهل الدولة العسكريين والملكيين ان يؤدوا له حسابا دقيقا عن اعمالهم .

وهكذا لاول مرة نرى ابن ابي عامر ذا علاقة بالجيوش وقادتها وكان ذلك جل ما تمناه وصبت اليه نفسه وهنا لا بد أننا نفكر بصعوبة المهمة التي ناء تحتها . فنرى ان مصلحته الخاصة قد املت عليه

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧ ، دوزي ج ٣ ص ١٢٣ — ١٢٧

ان لا يميل قيد خطوة عن سياسة التقرب الى القواد و الجند . اما مصلحة الدولة فكانت تأمره بمناقشتهم الحساب ومحاكمتهم محاكمة قانونيه عادلة ان اساؤا استعمال ما وكل اليهم، فوفق بذكائه ودهائه وثاقب نظره الى الجمع بين امانيه وما الزمه عليه الواجب ، فارضى الخليفة وجعل ارباب الجندية يثقون به ويهابونه ، وعقد المعاهدات مع الامراء الافريقيين من البربر وغيرهم واتى بالادارسة وابن كنون خاضعين فاقتبلهم الحكم وغمرهم بنعمه .

لما بدأ الحكم المستنصر يشعر بالضعف والوهن في قواه ، عقد مجلسا كبيراً حضره رجال الدولة وعظماؤها فطلب اليهم به تنصيب ولده هشاما خليفة للمسلمين من بعده فبايعوه فارسل ابن ابي عامر الرسائل الى الجهات بهذا الشأن وقد خطب باسم هشام المؤيد حينما توفى الحكم في اول اكتوبر سنة ٩٧٦.

لفظ الخليفة نفسه الاخير بحضور الخصيين فائق وجوهر اللذين كانت لهما اليد الطولى في ادارة شؤون الدولة . فثاب لهما راي فى تولية المغيرة اخي الحكم خليفة بدلا من هشام الفتى لكيلا تكون للصقالبة يد قوية فعالة فى امور المملكة فاخبرا الوزير المصحفي بما تم رايهما عليه فتابعهما مؤمنا لما قالاه وفي راسه فكرة وهيبة تتمخض ، وقد عمل على ابرازها الى حيز الوجود . فدعا كبار الدولة أمثال ابن ابي عامر وقاسم بن محمد وغيرهما من قادة الجيوش الافريقية الاسبانية وأسر اليهم ما عول عليه فائق وجوهر زعيما الصقالبة الخصيان وخوفهم

من المغيرة الرجل الرهيب في عرفه . فقرروا جميعا اعدام المغيرة السيء الطالع قبل ان يعلم بوفاة اخيه الحكم . لعمري من يقدم على تنفيذ هذا الامر الهائل من بينهم ؟ قد يتبادر الى اذهاننا ان قائداً من القواد السفاكين يقوم بذلك حق القيام الا ان التاريخ يسطر ان القاضي المتشرع ابن ابي عامر سار بمئة من الحرس وبعض الكتائب من الجند فاحاط بقصر المغيرة وما هي الا ساعات معدودات حتى امر بخنقه [١] تلك هي مأساة السياسة التي لا ترحم احداً . وما انبلج فجر اليوم الثاني من اكتوبر حتى بويع هشام من قبل اعمامه واقاربه ووزرائه واكابر دولته وتسمى المصحفي بالحاجب وابن ابي عامر بالوزير ثم بدأ هذا الاخير بالصقالبة الخصيان فحمل المصحفي على نكبهم فنكبهم وكانوا ثمانمائة وبذلك حاز على رضى سكان العاصمة وخطب ودهم لانهم تحملوا من مظالمهم وعسفهم الشيء الكثير .

اخذ اسبان الشمال يشددون اذ ذاك الوطأة على الاندلس فاصلوها ناراً حامية وداسوا بخيلهم ورجلهم خلال الديار حتى وصل البعض منهم الى ارباض قرطبة العاصمة . وكان ابتداء نشاطهم للزحف منذ تولية الحكم المستنصر . ولا ريب ان الحكومه العربية كانت قوية بجندها غنية بماليتها لكن تردد المصحفي الوزير الاكبر في الدفاع عن بلاد انهكها فتألم زميله طالب طرش من ضعفه وعدم اقتداره واكد له ان المملكة تصاب بشلل معنوي ويعم البلاد السوء والاحزان ان لم يبادر الى

---

(١) دوزي ج ٣ ص ١٤١، ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧ و كوبه ج ٢ ص ١٨١

الظهور بمظهر القوي الحازم امام الاعداء . فعقد الحاجب مجلسا للنظر في الوسائل التي يجب اتخاذها فقرروا الدفاع واوكل ابن ابي عامر المهمة بنفسه بشرط ان يقود جيشا يختاره وان يوضع تحت امرته مائة الف من الدنانير فاقروه على طلبه فاجتاح الحدود سنة ٩٧٧ واحتل حصن Banos الذي بناه راميرو الثاني ورجع سابياً غانما . ليست هذه الحملة عظيمة الشان بذاتها غير انها اتت بنتائج حسنة منها ارتداد الشماليين وجزعهم من الجرأة على نكب الاندلس وطاعة الجند لابن ابي عامر طاعة عمياء لما اغدق عليهم من الذهب الوهاج في سبيل رفاهيتهم وراحتهم.

بينما كان نفوذ ابن ابي عامر ينمو وينبسط في مختلف الجهات بدأت سلطة المصحفي تتقلص شيئا فشيئا لانه لم يكن ذلك الرجل الداهية الذي يعرف كيف تؤكل الكتف وتقتنص القلوب وتدار دفة الامور بحزم وثبات ، فبدلا من ان يسند المناصب الى اربابها جعلها في اهله وعشيرته ولنذكر انه لم يكن اداريا يعمل الفكرة حينما تطرأ على الدولة مهام جسيمة الاخطار بل يعتمد على طالب طرش في حل معضلاتها ولطالما حلم هذا ان ينكبه ويتربع بنفسه على منصة الاحكام فيصبح رجل الحكومة المطاع . ومما زاد في الطين بلة نقمة العرب النبلاء على المصحفي لانتسابه للابربر الخاملي الذكر في عرفهم [1] المصحفي الرجل الاول في الدولة آنئذ لم يرتب البتة في صداقة

[١] راجع ترجمة المصحفي في المقري ج ١ ص ٣٧٧ فما بعد

ابن ابي عامر له لأنه كان يخاف « غالبا » قائد الوجه الاعلى وصاحب الكلمة المسموعة في الجيش . حقا ان غالبا كان يامل ان يصبح يوما حاجب الدولة لما بذله من الجهود في احراز اكاليل الغار لكن خاب فأله وطاش سهمه باستيلاء المصحفي على منصب الحجابة وهو الرجل الذي لم تعرفه الساحات يوما انه بطلها المقدام فكان قائد الوجه الاعلى يظهر للحكومة الطاعة و يضمر لها الحقد والبغضاء و يود لو يتحد مع الكاستيل وليون كيما ينكب المصحفي ويطرده من البلاد . وغزا ابن ابي عامر في هذه الاثناء الشمال ثانية واتفق مع غالب في مدريد على اسقاط المصحفي وقدعين لدى رجوعه محافظا لقرطبة . ومن جلائل صنعه اذذاك انزاله العقاب الشديد برجال الحكومة الذين كان بهم مرض الرشوة والاهمال فوطد الامن وضرب الجناة بيد من حديد .

افاق الحاجب المصحفي من غفلته لما راى ابن ابي عامر يمثل دوره بمهارة فائقة على مسرح السياسة فتارة يظهر له بمظهر الصديق وطوراً يتفق مع اندادهِ عليهِ فاراد ان يفتك به لكن انى له ما اراد وهو ذلك الخصم الذي حمته السلطانة صبح واحبه الجيش وخطب وده اهل العاصمة لظهوره بمظهر المصلح الكبير . ثم اخذ يبذل الجهد في الاتفاق مع غالب مهما كلفهُ ذلك من الثمن الغالي فوعده بالنفوذ الطائل والحظوة الكبيرة لديه وطلب منه يد ابنتهُ اسماء لابنهِ عثمان وكاد ان يتم الاتفاق بينهما لولا منافسة ابن ابي عامر له وزواجه منها بعد ان استمال اباها اليهِ فباء المصحفي بالخذلان . كان زواج اسماء بطالب طرش مبنياً على

المنفعة المتبادلة والمصلحة المشتركة الا انه فضلها على سائر نسائه لجمالها وتعقلها .

ان هي الا برهة بعد هذا الحادث حتى سيق المصحفي في ٢٦ مارس سنة ٩٧٨ م مع ابنائه واقاربه الى السجن بدعوى الاخلال بالامن والاساءة في تدبير امور الدولة فحجزت جميع امواله وعقاره وقد عذبه ابن ابي عامر عذابا اليما وانتقم منه انتقاما وحشياً فكان حينا يسجنهُ واخرى يطلق سراحه الى ان اعدمه اما شنقا واما تسميما (١)

وقد عين ابن ابي عامر حاجبا بدلا من المصحفي وتمتع وغالبا بسلطة واسعة غير ان رفقاءه الذين درسوا واياه علوم الدين من فقه وحديث اتهموه بالزندقة والوهن في مبادئه الدينية لتساهله نوعا في تشجيع الفلسفة فعمدوا الى قتل هشام وتنصيب عبد الرحمن بن عبيد الله حفيد عبد الرحمن الثالث مكانه واسقاط الحاجب الجديد نفسه (٢) . وكان تلامذة الفقه عموما من المتعصبين لاسلاميتهم فشعر بالاخطار المحدقة به وعزم على نزالهم بنفس سلاحهم . ان كان ابن ابي عامر فيلسوفا كما يزعمون فلقد كان رجل حكومة قبل كل شيء

(١) ومن بديع ما حفظ له في نكبته قوله يستريح من كربته :

صبرت على الايام لما تولت	والزمت نفسي صبرها فاستمرت
وما النفس الا حيث يجعلها الفتى	فان طمعت تاقت والا تسلت
فواعجباً للقلب كيف اعترافه	وللنفس بعد العز كيف استذلت
وكانت على الايام نفسي عزيزة	فلما رأت صبري على الذل ذلت
فقلت يا نفس موتي كريمة	فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت

المقري ج ١ ص ٧٧٧

(٢) دوزي ج ٣ ص ١٧٢ .

فاتى بالعلماء من امثال ابن الزبيدي وغيره الى مكتبة الحكم المستنصر وامرهم بانتزاع كتب الفلسفة واحراقها . [١] . يعد طلبة الفلسفة ماقام به ابن ابي عامر جريمة لاتغتفر وضربا من الخسارة العلمية الجسيمة لاسيما وهو الرجل النير الفكر والمشترع الحكيم . لكن السياسة قضت عليه ان ينزل على ارادة علماء الدين والعامة ويجعلهم من اعوانه ومناصريه وان لايكون لاحد منهم حجة على فتكه بالمتآمرين . فكان له اذن من تقاه وشهرته فى توطيد دعائم الدين حصنا حصينا يتيه غضب البلاد . ثم وجه همه بعد ذلك الى اتخاذ الوسائل الضرورية الاحتفاظ من اشراك الخليفة الصغير الذي بدأ يفهم معنى الحياة والقوة .

كان هشام الثاني المؤيد ذا عقلية طيبة خصبة وغاية فى الحذق

(١ وهاك تفصيل الحادث : وعمد ابن ابى عامر اول تغلبه على هشام الى خزائن ابيه . وابرز ما فيها من ضروب التآليف بمحضر خواص من اهل العلم بالدين وامرهم باخراج ما فى جملتها من كتب العلوم القديمة المؤلفة فى علوم المنطق وعلوم النجوم . حاشا كتب الطب والحساب فلما تميزت من سائر الكتب المؤلفة في اللغة والنحو والاشعار والاخبار والطب والفقه والحديث وغير ذلك من العلوم المباحة عند اهل الاندلس الا ما افلت منها في اثناء الكتب وذلك اقلها امر باحراقها وافسادها فاخرج بعضها وطرح بعضها في آبار القصر وهيل عليها التراب والحجارة وغيرت بضروب من التدابير وفعل مثل ذلك تحببا الى عوام الاندلس وتقبيحا لمذهب الخليفة الحكم عندهم اذ كانت تلك العلوم مهجورة عند اسلافهم مذمومة بالسنة رؤسائهم وكان كل من قرأها متهما عندهم بالخروج من الملة ومظنونا به الالحاد و الشريعة فسكن اكثر من كان تحرك للحكمة عند ذلك وخملت نفوسهم وتستروا بما كان عندهم من تلك العلوم » طبقات الامم للقاضى ابى القاسم صاعد بن احمد الاندلسي مطبعة السعادة مصر ص ١٠٢ — ١٠٣

والذكاء في صغره كما يشهد بذلك الزبيدي مؤدبه [١]. فاتفقت السيدة صبح امه مع ابن ابي عامر على خنق مواهب هذا الفتى في مهدها وعدم تنشئتها واثقالها حملاه ما لا طاقة له به من الفروض الدينية والواجبات الروحية حتى ناء تحت عبئها الثقيل.

خاف الحاجب ان يوسوس احد لهشام فيخبره حقيقة امره وما لمنصبه الديني السياسي من الاهمية، ذلك لما تردد قصر الخلافة مركز الحكومة من الامراء والقواد والكبراء وغيرهم من الذين لا يبعد البتة ان يثيروا ريب الخليفة الفتى وان يعملوا على اسقاطه فلما استفحل امره وكثر اضداده وانداده وسما الى ما سمت اليه الملوك من اختراع قصر ينزل فيه ويحله باهله وذويه ويتم به تدبيره وسياسته امر بتشييد مدينة الزاهرة على الوادي الكبير [٢] مقر الحكومة الرسمي وشحنها بجميع اسلحته واموله وامتعته واتخذ فيها الدواوين والاعمال ثم اقطع ما حولها لوزرائه وكتابه وقواده وحجابه فابتنوا بها كبار الدور وجليلات القصور وقامت بها الاسواق وكثرت بها الارفاق. ومن ثمة نفذت الكتب والمخاطبات والاوامر باسمه وتلقب بالحاجب المنصور ودعي له على المنابر عقب الدعاء للخليفة ومحا رسم الخلافة بالجملة وكتب اسمه في السكة والطراز [٣] ولم يبق لهشام غير الدعاء ايام الجمعة. فحجر على الخليفة كل تدبير واحاط قصره بسور منيع وبث العيون والارصاد للسهر على كل

(١) دوزي ج ٢ ص ١٧٨

(٢) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨، المقري ج ١ ص ٢٧٠ — ٢٧١ ج٣ ص١٨٣

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ .

شاردة وواردة يقوم بها واصبح حقاً اسيراً بن ابي عامر الذي ادعى ان امور الدولة قد فوضت اليه من قبل الخليفة [1] .

وثق الحاجب من قوته فشرع بتنظيم الجيش وكان له في ذلك غايتان الاولى وطنية وهي ان يكون من اسبانيا المسلمة مملكة من اقوى الممالك الاوربية والثانية شخصية بحته ترمي الى اذلال غالب ومحو نفوذه والتسيطر عليه ، وقد ضعف امر الجيش آنئذ لما كان من التنافس الشديد بين زعمائه فنفخوا في الجند روح التفرقة والانشقاق آناً بعد آن ومرة اثر اخرى ويظهر ان جمال المحيط وسكونه وروعته اثر عليهم فاضعف فيهم بطولتهم الحربية فاخلدوا للدعة وكان جيش التخوم لا يتجاوز عدده الخمسة آلاف وهؤلاء لا يعتمد عليهم في صد غارات الاعداء والاستبسال في الدفاع لقلتهم عدا ما كان يامل به ابن ابي عامر من الفتوحات وقهر غالب .

لا ريب ان غالبا كان من اكبر مناصري ابن ابي عامر على المصحفي لكنه لم يستحسن اعماله في حجره على الخليفة هشام ومعاملته معاملة الاسرى والمجرمين السياسيين لا سيما وغالب ملكي اكثر من الملك اذ هو ربيب آل اميه ومولى لعبد الرحمن الثالث . فلم يطق الحاجب ان يشاركه احد في امور ادارته ولذا قرر التخلص من هذا الخصم العنيد . وكان غالب من الرجال الذين لا تلعب بهم المكائد ولا يصطادون اصطياد السماك في الشباك بل قائداً محنكا عركته الايام وبلته صروفها

---

(١) دوزي ج٣ص١٨٠

واحزابها ولو اعلن انتصاره للخليفة على رؤوس الاشهاد لا نضم اليه خلق كثير [١] فوجه ابن ابي عامر همته نحو اكتساب جند يكون له بكليته كيما ينتصر على نده ويقهره فاستدعى اهل العدوة من رجال زناته والبربر ورتب جنداً واصطنع اولياء وعرف عرفاء من مغراوة وصنهاجة [٢] وغيرهما وقد اطمعهم بالرواتب الباهظة واغدق عليهم النعم فاقبلوا اليه زرافات ووحدانا .

فلما اقبل بربر افريقيا على خدمته وقد انضم اليهم عدد وفير من مسيحيي الشمال من الكاستيل وليون والنافار لكرمه الحاتمي وفقرهم المدقع فاكتسب مودتهم واخلاصهم واستولى على قلوبهم برحابة صدره واحسانه وعدله فاصبحوا ملكا له يتصرف بهم كيفما شاء وشاءت اهواؤه ومطامعه وكانوا لا يفهمون العربية الا انهم نسوا اوطانهم الاولى ووجدوا بالحاجب وطناً وحده [٣] .

ثم حور نظام الجند بتمامه حينما ازداد في جيشه عدد الاجانب والاغراب فما عادت القبائل تؤلف الفرق بل اجبر الافراد ان تنخرط في سلك الاقسام الغريبة عن قبائلهم فانطفأ نفوذ الرؤساء من النبلاء وبات الجندي لايعرف القبيلة التي ينتسب [٤] اليها وبذلك مزج شعوب

(١) دوزى ج ٣ ص ١٨٢

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧ ، المقرى ج ١ ص ١٨٦

(٣) دوزى ج ٣ ص ١٨٧

(٤) دوزى ج ٣ ص ١٨٧ — ١٨٨ .

الأندلس بعضها ببعض واتم الوحدة التي بدا بتاسيسها عبد الرحمن الثالث من تلك الامم المختلفة ديناً وجنسية ولغة .

ثم لابن ابي عامر ما ارادمن تاليف جندمخلص بهبه الروح فاصبحت الحرب قاب قوسين او ادنى بينهُ و بين غالب فوقعت واشتبكا في معارك عديدة ساعدت بها ليون خصمه وكان ذلك بعد ان انبه غالب على حجره للخليفة وكاد في آخر مرة التقى بها جيشاهما ان يولي الحاجب الادبار لو لم يصاب غالب بجراح قضت عليه ، فدب الهلع في صفوفه (٩٨١ م) وباء بالهزيمة . انتصر الحاجب انتصاراً باهراً على نده فحمل على ليون حملات صادقات ليظهر ان جيشه لم يكن له فحسب بل للوطن ايضا فانزل بها قصاصا شديداً واستولى بالقائدعبدالله الذي يلقبه الافرنج « Pierre Sechc »[٢] على سامورة « Zamora » سنة ٩٨١ وهدم نحواً من الف قرية بكنائسها وادرتها واستنزل الحاجب حليفتي راميرو الثالث السكاستيل ، والنافار في معركة Rueda في الجنوب الغربي من Simancas وكسرهم اشد كسرة ،

وكانت الضربة شديدة على راميرو الثالث فخلعه قومه وثارت غاليسيا ونصبت على العرش بدلامنه برمودالثاني Bermude II فخضع هذا الاخير للحاجب بشرط ان يعينه على خصمه و كبار مملكته فبعث

(٢ دوزى ج ٣ ص ١٩٠ . وقد لقب لطمعه على مايظهر . كذا يقول العلامة دوزى وترى بعض المؤرخين يسمونه بيدراسكا راجع هوارث ج ٢ ص ١٦٤ ح ١ ص ١٧٣ —١٨١

اليه بالجيوش واحتل ليون مدعيا ان ذلك خير وسيلة لتوطيد الامن وحماية الملك فصارت ليون مقاطعة من المملكة الاسلامية الاسبانية[١].

ثم وجه المنصور قواه نحو كاتلونيا التي سادت فيها الفوضى من جراء مظالم الروح الاقطاعية فسار ماراً بالبيرة و Bez.a ولورقا وقد اخضع برسلونة وبرفقته اربعون من الشعراء لينشدوه مفاخره وكانت هذه هي الحملة الثالثة والعشرون من نوعها (٩٨٥ م).

عاثت الجنود الاندلسية في ليون وعاملت سكانها معاملة الغالب للمغلوب فلم يطق برمود الثاني صبراً على هذه الحال وطرد المسلمين من بلاده فاجتاز المنصور الحدود سنة ٩٨٧ واحتل Coimbra وهدمها الى آخرها وفي السنة التي تلت عبرت جيوش المسلمين نهر الدورو Duero وتدفقت كالسيل العرم لا تبقي على القصور والكنائس والادرة حتى وصلت ليون ذات الحصون والابراج المنيعة البالغة كثافتها نحواً من عشرين قدما. فثبت الليونيون طويلا غير ان المنصور تمكن منها اخيراً ولم يبق فيها حجراً على حجر[٢] (٩٨٨ م).

اكتشف ابن ابي عامر حين قفوله من هذه الحملة المجيدة مؤآمرة دبرها كبار الدولة وفيهم ابنه الامير عبدالله وكان شابا شجاعا لايتجاوز

---

(١) دوزي ج ٣ ص ١٩٧ يذكر ان ليون اصبحت تحت الحماية الاسلامية بعد هذه الحملة. والحماية في عرفنا الخضوع لاسيما وان جنود الفاتحين كانت تعيث فيها.

(٢) Recherches ج ٢ ص ١٨١ — ١٨٤

الاثني والعشرين ربيعا وقد اقدموا عليها لزوال نفوذهم واضمحلاله فاعدمهم فاستقبل ابنه الموت وهو رابط الجأش سنة ٩٩٠ م .

حكم المنصور اسبانيا نحواً من عشرين عاما ولقد آمل ان يورثها لابنائهِ من بعده فلقب ابنه عبد الملك بالحاجب سنة ٩٩١ وتلقب هو نفسه بالمؤيد — لقب الخليفة هشام — وامر ان يدعى « بالسيد » و « الملك الكريم » سنه ٩٩٦م[1] .

ترى لماذا لم يقبض المنصور على زمام الخلافة وقد اصبحت اسبانيا تحت قدميه ؟ ان هشاما الضعيف لم يجرب البتة ان يفوز بسلطانهِ او ان يستنشق نسيم الحرية فيتخلص من نير المنصور. كذلك فان رجال العائلة المالكة قد لعبت السيوف في رقابهم فاعدموا ونفي الباقون وابتئسوا واصابهم من العذاب الوانا . فهل من الممكن اذن ان يعارضه الجيش ؟ هذا ما لانظنه لان معظم الجند كان من البربر ومسيحيي الشمال والصقالبة وهم غرباء اجانب لايعرفون غير الطاعة العمياء الا ان المنصور كان يخاف الامة باسرها لانها كانت تعترف ان آل امية هم الامراء الشرعيون وهم الورثة الحقيقيون للعرش والتاج وقد تمكن منها حب العائلة المالكة وتأصل في عروقها ولو تصدى ابن ابي عامر — ذلك الرجل الذي بلغت الدولة فى ايامهِ اوج سعدها — للخلافة لهبت الامة هبة الرجل الواحد تقف دون آماله . فعلم ذلك حق العلم ولذا لم يرق عرشها لكنه اعتقد ان الراي العام لابدان يتحور فتنسى الامة خليفتها

---

(١) هوارت ج ٢ ص ١٦٥ دوزى ج ٣ ص ٢١٨

الفتى وتتحول الانظار نحوه [١] فترجح كفة ميزانه .

كانت السيدة صبح ساعده الاكبر في بلوغه الغاية التي ليس وراءها غاية من الرفعة . اما الان فاخذت تنصب له الشراك لايقاعه وذلك حين اخمدت الايام جذوة الحب المشتعلة فى قلبي الحبيبين الطموحين فانقلب حبها الى بغض شديد وجعلت تبث فى ابنها الخليفة روح الانفة والرجولية بعد ان اماتتها كيما يخلع نير الحاجب المنصور عنه . ثم ارسلت الدعاة في البلاد قائلة ان الخليفة يود الحياة الحرة والانطلاق من سجنه الضيق المزخرف فقام زيري بن عطية [٢] فى موريتانيا يطلب الافراج عنه غير ان المنصور ارسل اليه عبد الملك المظفر ابنه فالتف حوله البربر وناجزوا زيري الحساب في معركة فاصلة شتت شمله بها سنة ٩٨٨ فمات متأثراً من الجراح التي اصابته سنة ١٠٠١ ولما رأت السيدة انه لاقبل لها بمناوأة رجل الدولة رجعت الى الله وقضت ايامها فى العبادة والتقوى

كان معظم جيش المنصور فى موريتانيا كما تبين لنا الا انه لم يجعل للشماليين من سبيل للخلاص من سلطانه وجزيته . ومن شهيرات الحملات عليهم حملة القديس جاك دي قومبوستل (St.Jacques de Compostelle) وسنتياغو (Santiago) او شانت ياقب كما يدعوها العرب وهي قاصية غاليسيا واعظم مشاهد النصارى ببلاد الاندلس ، انها يحجون من اقاصي فرنسا وايطاليا والمانيا ولها المنزلة الثانية بعد

---

(١) دوزى ج ٣ ص ٢٢٠

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ٤٤٨

رومية ولم يطمع احد من ملوك الاسلام في قصدها ولا الوصول اليها لصعوبة مسالكها فخرج اليها المنصور غازيا بالصائفة وهي غزوته الثامنة والاربعون فجاز Coria و Visen و Porto وكان المنصور قد تقدم في انشاء اسطول كبير فى الموضع المعروف بقصر ابي دانس من ساحل غربى البرتغال ويسمونه اليوم Alcacer de Sal وجهزه برجاله البحريين وصنوف المترجلين وحمل الاقوات والاطعمة والعدة والاسلحة. فاعانه في حملته هذه ونزل على سنتياغو فوجدها خالية من اهلها وهدم المدينة باسوارها ومصانعها وكنيستها وحفظ المنصور قبر ياقب من الخراب ثم رحل الى قرطبة بطريق Homego بعد ان اوطأ جنده اذ ذاك سانت مانكش على البحر المحيط كما يقول المقري [١].

اما آخر صحيفة من تاريخ طالب طرش الحربي فهي انه في سنة ١٠٠٢ قام بجنده وضرب الكاستيل فاحتل Caual وخرب دير القديس اميليان St Emilian حامي البلاد وشفيعها. ومما يؤثر عنه انه كان يحمل اكفانه معه الى ساحات القتال وقد خاطتها بناته وفيما هو قافل الى العاصمة انتابه مرض شديد فقضى فى ١٠ اغسطس في مدينة سالم سنة ١٠٠٢.

حقا ان شمالبي اسبانيا لم يقاوموا رجلا اشد مراسا من المنصور فلقد

---

(١) المقرى ج ٣ ص ١٩٣ — ١٩٤ راجع دوزى ص ٢٢٩ — ٢٣٥ ولان پول ص ١٦٥ ، وكوبلج ٢ ص ١٨٣ وكونده ج ٢ ص ٢٢٥ وهوارت ج ٢ ص ١٦٥

غزاهم اكثر من خمسين غزوة اذ كان يرتادهم مرتين في كل عام وهدم مدنهم الكثيرة وعواصم ثلاث هي ليون وبامبلون وبرسلونه ولطالما ارتعدوا فرقا لذكراه وتمثل لهم الرعب في شخصه . وكان صارما في تعاليمه الحربية محبا لجنده فاطاعوه واصبحوا حصن اسبانيا الاسلامية الحصين وقوة ضاهت قوى جيوش عبد الرحمن الناصر وشجع التعاليم الدينية والاداب فام بلاطه الشعراء كصاعد البغدادي وغيره ومهد المواصلات ووسع المسجد الجامع وبنى قنطرة على نهر قرطبة الاعظم انتهت النفقة اليها الى اربعين الف دينار وشيد اخرى في استجه Ecija على نهر شنيل Xenil

هذه سيرة طالب طرش الذي صار امير البلاد بعد ان اقام ملكه على الجماجم وارتكب المحرمات والجرائم مما تاباه المقاييس الاخلاقية اشد الاباء . اما الانصاف فيقضي ان نقول انه كان عادلا فبسط الحق في الربوع حتى ضرب بذلك المثل [١] .



(١) المقري ج ١ ص ١٩١

النصارى تحت حكم المسلمين

في اسبانيا والاندلس

حضرات الافاضل اصحاب المقتطف

عليكم السلام والرضوان وبعد فقد جاء بعدد ابريل سنة ١٩٢٣ من المقتطف صحيفة ٣٣٠ من مقال شائق مفيد بعنوان فتح الاندلس وبامضاء الفاضل المحقق انيس افندي زكريا النصولي ما يأتي نصهُ :—

(١) لما وطد العرب اركانهم في اسبانيا جعلوا لا يعبأون بالمعاهدات التي عقدوها مع المسيحيين ولا ينظرون اليها نظرهم اليها حين ابتداء الفتح

(٢) ان عبدالرحمن الداخل حجز املاك ارطباس احد ابناء غيطشة بحجة انها كثيرة على اسباني واحد وكان طارق قدعاهده على حفظها وثبت ذلك الخليفة نفسهُ

ومفاد هذا القول وما تقدمه صراحة اوضمنا ان المسلمين كانوا خيراً وبركة من الوجهتين الاجتماعية والاقتصادية فاما من الوجهة

احببنا نشر فصول هذا الجزء من كتابنا « الدولة الاموية في قرطبة » في المجلات الممتازة في الاقطار العربية العزيزة مصر والشام والعراق حتى تقع تحت انظار علماء الاسلام فينتقدوها ويرشدونا بآرائهم فيما كتبناه وها انا ننشر فيما يلي اراء الاستاذين الكريمين حسين افندي وزكي افندي في فصل « فتح الاندلس » اتماما للفائدة .

المؤلف

الدينية فانهم جاروا وما عدلوا وقلبوا ظهر المجن للنصارى . وهذا قول لا يؤخذ بهِ على الاطلاق وقد دحضهُ كتاب النصارى ومؤرخوهم انفسهم انتصاراً للحق وتحرياً لوقائع التاريخ الثابتة وعندي ان حضرة المؤرخ الفاضل قد جارى كتاب الكنيسة الاول ومن جاراهم . فاما المنصفون من محدثي المؤرخين امثال العلامتين [١] (برنارد والين هوايشو) مؤلفي كتاب « اسبانيا العربية » واستانلي لين بوول مؤلف كتاب « العرب في اسبانيا » فقد ذكروا ان المسلمين كانوا آية في التسامح وانهم صرحوا بحرية الاديان وجعلوها حرة بالفعل وما تعرضوا للنصارى بأذى . ونحن ننقل عنهم ما يأتي فقد ذكر صاحبا « كتاب اسبانيا العربية » بصحيفة ١٧ و ١٨ و ١٩ و ٢٠ وما بعدها ما يأتي تعريبهُ بالحرف الواحد :

اذا صدقنا رواية مؤرخي الكنائس ومن تابعهم تبيَّن لنا ان مركز الكنيسة النصرانية واتباعها اثناء الاحتلال الاسلامي لاسبانيا كان عبارة عن اضطهاد وظلم مستمرين طويلين وعهد استشهاد وموت في سبيل الديانة النصرانية . مع ان الحق الذي لا ريب فيهِ انهُ لغاية دخول الموحدين الذين هفوا بعض الهفوات في حق النصارى وعاملوهم في احايين قليلة بشيء من القسوة كان حال النصارى على العموم حسنا وتمتعوا بهناء التسامح وعوملوا بعدل ورحمة ولم يشترط عليهم تلقاء ذلك الا دفع ضرائب خفيفة جداً مع الامتناع عن امتهان دين الفاتحين اي المسلمين واذا تصفحنا الكتاب المعروف باسم Espana Sagrada يتبين

---

(١) Arabic Spain by Bernhard & E. M. Whishaw

لنا بشكل لا يقبل الشك ان رجال الدين المسيحي وممارسة الشعائر المسيحية وامور الرهبنة المسيحية ، كل ذلك لم يمس بسوء مدة قرنين من الزمان بعد تاريخ الفتح الاسلامي . وبعد مضي القرنين المذكورين لا ينص الكتاب على الموضوع نصا صريحا بل تدل حوادث السنين الاخيرة للاحتلال الاسلامي ان النصارى كانوا يتمتعون بحرية وهناء مستمرين ولنأخذ على صحة ما نقول بعض الامثال القليلة

(١) من ذلك انهُ ورد اسم ستة من الاساقفة على قسم قرطبة مارسوا شؤون وظائفهم من سنة ٨٥٠ الى سنة ٩٨٨ وذكر بعضهم مسجلا اسم (١٣) ثلاثة عشر اسقفا لقسم اشبيلية تشغل مدة وظائفهم المدة الممتدة الى نصف القرن الثاني عشر . وذكر بصدد مالقه انه كان لها اسقف سنة ٨٦٥ واسقف آخر في اخر القرن الحادي عشر . وذكر اسقفا لماردة في القرن التاسع وسبعة اساقفة لكوامبرة وتسعة اساقفة لفنزو كما ذكر ان طليطلة تقلب على كرسي اسقفيتها احد عشر اسقفا من سنة ٩١٣ الى سنة ١٠٧٧ . وزعم رودريك الطليطلي ان اساقفة شدونة ونباله ومرشانه اعتصموا بطاليطلة سنة ١١٤٦ عند مجيء الموحدين الى اسبانيا وذكروا انهُ وجد بقرطبة ست كنائس بداخلها ومثلها فى خارجها فى منتصف القرن التاسع وفي لشبونه حفظت اكثر من كنيسة لاستعمال النصارى

واهم من ذلك ان الموحدين انفسهم الذين رماهم بعض المؤرخين بعدم التسامح قد امروا باتمام بناء كنيسة سان لوكاربين اشبيلية وباله

ولا تزال قائمة الى يومنا هذا . ذكر ذلك المؤرخ النصراني Morgado هذا فضلا عن كنيسة الغراب القريبة من رأس الغرب وهو راس سانفنسان الشاخص في المحيط وقد وصفهُ الادريسي باسهاب لا نزيد عليهِ الا قولنا أنها كنيسة بنيت حوالي نصف القرن الثامن لتضم اعلاق القديس سان فنسان بعد نقلها من بلنسية وان استمرار بقائها مع ما الحق بها ووقف عليها من الاملاك الواسعة والاراضي الخصبة اعظم دليل على تسامح المسلمين مع اخوانهم النصارى .

وذكر Ayala في تاريخه انهُ ترك للنصارى ست كنائس يصلون فيها في طليطله . وقد ذكرنا عدداً من الاساقفة فيما تقدم فهؤلاء كان لهم دوائر دينية واسعة يحكمون فيها وتحت سلطانهم جملة كنائس — وذكر Florez نقلا عن St. Eulogiu انهُ في زمنهِ كان يخوّل للنصارى بناء كنائس وان نصارى قرطبة كانت لهم الحرية الدينية باوسع معانيها وانهُ كان لهم كنائس ولها النواقيس تدق وفيها الطقوس والشعائر تمارس بكامل الحرية وليس هذا فقط بل ان اوقات المحنة والاضطرابات الشديدة ما كانت لتحول دون سير الجنازات المسيحية بكل ابهتها علنا في الشوارع من غير تعرض ولم ينفرد قساوسة النصارى بالتمتع بالحرية الدينية بل شاركهم في ذلك الرهبان الذين اقاموا في صوامعهم واربطتهم آمنين مطمئنين وزاد عدد الصوامع والبيع زيادة عظيمة ونما نمواً كبيراً فكان في ارباض قرطبة ثمانية اديرة . وجاء في تاريخ القرن المذكور اسماء رؤساء هذه الاديرة منهم رجل يقال له سامسون هدى كنيسة القديسة سبستيان

في قرطبة سنة ٨٧٥ ناقوسا عظيما لا يزال موجوداً فيها . ومما يدل على تسامح المسلمين وتعاملهم مع النصارى ان عبد الرحمن بن المنصور الوزير المشهور اقام ليلة فى دير قبل تاريخ قتله بمدة وجيزة .

وذكر استانلي لين بول بصحيفة٨٢ وما بعدهامانقلنا عنه ملخصا فى غضون الكلام عن عبد الرحمن الاوسط ونصه كالآتي :

هذا ولا يحسن ان تطوى صحيفة عبد الرحمن الاوسط من غير اشارة الى علاقة المسلمين بالمسيحيين المحكومين من الاسبانيين فقد كان المسلمون عامة على احسن مايكون قوم قدملكوا ناصية السيادة وتحكموا في رقاب العباد تسامحا مع غيرهم ممن يكون على غير دينهم وكان امراؤهم وحكامهم وقضاتهم وفقهاؤهم يحسنون معاملة من آثر البقاء على دين آبائه واجداده من الاسبانيين فكان العدل ماشيا بين سائر اصناف الرعية على السواء لافرق بين عربي واسباني مسلم ومسيحي حتى لانبالغ اذا قلنا ان صحيفة تاريخ الحكم الاسباني في الاندلس انقى صحيفة في تاريخ الاسلام كله . وقد ترطبت السن المعاصرين بالثناء عليهم والدعاء لهم وكان المسيحي في ظل عبد الرحمن الاوسط ومن تقدمه من الامراء في بحبوحة من الامن على نفسه وماله وعرضه، يمارس شعائر دينه ولا من يمانعه اويتعرض له او يزدري به وكان المسلمون يغضون العين عن اذى المسيحيين واقوال رعاعهم الذين يوسعون الديانة الاسلامية السمحة سبا ويقولون في نبي المسلمين الاقاويل : غير ان فريقا من النصارى غاظه هذا التسامح وكره ان يكون ملك

المسلمين قائما وعدلهم فاشيا في الجميع واراد ان ينفخ في عامة النصارى روح التمرد والعصيان وجعل قوم من متنطعي القساوسة ورجال الدين يسبون المسلمين علنا ويرمون الاسلام بما هو منه بريء ووصل بهم التهوس والجنون الى حد طلب الموت من طريق التحرش بالمسلمين والتعرض لهم بغليظ الاهانات مع ان مؤرخي الفرنجة يشهدون بالقول الصريح ان المسلمين ما كانوا يقرنون اسم السيد المسيح الابسائر الفاظ الاجلال والتكريم ولا يشيرون الى نصوص تعاليمه الاصلية الا بعبارات الاحترام . نعم راج بين متهوسي النصارى لعهد عبد الرحمن الاوسط مذهب الرغبة في الموت فداء لدين المسيح ولو انصفوا لقالوا فداء الجهل والغباوة والجنون المطبق . وكيف لا يوصف قوم يذكرون جميل المسلمين ويقابلون بالاذى عدلهم وتسامحهم وحسن معاملتهم واغماض العين عن اذاهم بالجنون والغباوة .

اما القول إن عبد الرحمن حجز املاك ارطباس احد ابناء غيطشه بحجة انها كثيرة على اسباني واحد فزعم لا ينهض على تأييده دليل عقلي اونقلي لان العالم باحوال الاندلس لدى مجيء عبد الرحمن الداخل اليها يعلم علم اليقين انه كان من حرج المركز بين الاحزاب المتعددة والاطماع المتنافرة بحيث لا يجيز لنفسه ركوب المراكب الخشنة من السياسات كاحراج صدور اولاد غيطشه ومن والاهم واتصل بهم وقد كانوا حزبا كبيراً مسموع الكلمة وكان عبد الرحمن حاذقا فطنا لبيبا موفق السياسة يقرب الاعداء ويمنحهم بالصلات ويرقيهم الى اسمى

المناصب في البلاد فكان لذلك يربأ بنفسه ان يكون حربا على قوم لاتؤمن مغبة معاداتهم .هذا فضلا عما جاء في ترجمة خطية لكتاب قيم في تاريخ الاندلس ينسب الى رجل يقال له ابن القوطية وقد اورد هذه الترجمة وهي (ليوليان ريبارة) العلامة (بونس) ورواها عنه الفاضلان برنارد والن المتقدم ذكرهما فمن شاء فليراجع صحيفة ٥٢ وما بعدها من كتابهما «اسبانيا العربية» . وصفوة ماجاء بهذا الصدد ان عبد الرحمن الداخل مر بارض ارطباس فوجدها ارضا واسعة جداً كثيرة الخيرات والبركات وافرة المحصول والغلات ووجد عندبابه خلقا كثيرين يحملون له الهدايا والارزاق ويتقربون اليه زلفى فحسده عبد الرحمن على مكانته وخاف من سعة نفوذه على دولته اولعله سمع فيه وشاية عدوفصادراملاكه حقيقة ولكن كان ذلك الى حين ولم يكد ارطباس يراجعه في الامر حتى ردّ له كل ما اخذ منه وعاد فرحا مسروراً .

وختاما نشكر الاستاذ انيس زكريا النصولي على الحقائق الثمينة التى اوردها الفائدة المشتغلين بتاريخ الاندلس وهو تاريخ على اهميته لا يزال قليل المصادر فى اللغة العربية ومما يجعل لعمل الاستاذ قيمة خاصة ان في تاريخ الاندلس نقطا كثيرة تستوقف النظر لتضارب اقوال المؤرخين بشانها : من ذلك موقف اولاد غيطشه من جيش «لوذريق» فقدذكر صاحب نفح الطيب وتابعه الاستاذ النصولي «راجع مقتطف فبراير» ان ولدي غيطشه كانا على جناحي جيش لوذريق وهو قول لايسلم به

القتل لان لوذريق مغتصب ، اغتصب العرش من اولاد غيطشه فلا يعقل ان يوليهما امراً هاماً في الجيش وهو قيادة الجناحين مع علمه بكراهتهما له لما فعل بهما وبما اساء اليهما

فهذا يدل على ان التاليف في تاريخ الاندلس ليس من الامور الهينة فكل ما جاء بالمقتطف في موضوعه خدمة جليلة للغة العربية وتاريخ امة العرب . اه

حسين لبيب

استاذ التاريخ بمدرسة القضاء الشرعي

—○✡✡✡○—

فتح الاندلس (١)

ان الشرارة التي تضيء فتظهر حقائق التاريخ بيضاء ناصعة من جراء احتكاك الافكار بعضها ببعض ، وان الغربال الذي يحمله اصحاب الانتقاد العمراني من المؤرخين وغيرهم لهو اكبر وسيلة يقدرها الباحثون على استنطاق الحادثات ومعرفة اسبابها وفواعلها ونتائجها ولذا فانني اشكر من صميم القلب للاستاذ المؤرخ حسين لبيب اهتمامه بانتقاد مقال فتح الاندلس « مقتطف دسمبر ٩٢٢ الى ابريل سنة ٩٢٣ » وابدأ بسرد ارائي فاقول :

اخذ الاستاذ الفاضل علي قولي « لما وطد العرب اركانهم في اسبانيا جعلوا لا يعبأون بالمعاهدات التي عقدوها مع المسيحيين ولا ينظرون اليها نظرهم لها حين ابتداء الفتح » دون ان يبحث عن البراهين التي اوردتها داعمة قولي في الجملة التالية وهي « ففي قرطبة عقدت الحكومة معاهدة مع مسيحييها تنص على حفظ كاتدرائية مار منصور لهم ولكن حين كثرت المهاجرة السورية الى قرطبة جعل العرب نصفها جامعا للمسلمين وهذا طبعا غير ما تنص عليه المعاهدة » ومن ثمة اباح لنفسه ان يستنتج من قولي هذا « ان العرب جاروا وما عدلوا وقلبوا ظهر المجن للنصارى » واخذ يبرهن ان العرب كانوا آية في التسامح الخ .

ان المسلمين العرب كانوا رحمة وبركة عموما مدة اقامتهم في الاندلس

---

(١) الرد الذى نشره المؤلف على الاستاذ حسين لبيب في مقتطف آغسطس سنة ١٩٢٣

ولكنهم مع تصريحهم بحرية الاديان وعدم ضغطهم على احد من هذا القبيل كان يرجع امر الكنيسة الى السلطة العربية فتولي كهنتها وتعزلهم متى شاءت وهكذا المؤتمرات الدينية فما كانت تعقد الا باذن منها « مقتطف ابريل »

ويثبت الاستاذ R. Dozy الذي خصص حياته لدرس الاندلس فاصبح ثقتها الاكبر ذلك في كتابه Histoire des Musulmans d Espagne الجزء الثاني ٤٦ — ٤٧ بقوله « ومع ان الحرية الدينية كانت سائدة فان الكنيسة كانت خاضعة لعبودية قاسية . ان حق عقد المجامع وتعيين مطران او خلعه اصبح امره في يد السلاطين العرب وملوك الاستوري في الشمال بعد ان كان يبرم ذلك من قبل الملوك القوط (راجع المادة السادسة من قرارات مجمع طليطلة الثاني عشر و (Vita Johannis Gorzeleensis) وحين كان يرفض بعض رجال الدين الاشتراك في مؤتمر ما كان السلاطين ينصبون في مراتبهم المسلمين واليهود (راجع Samson, Apolog, LII, c. 8) وكان يباع منصب المطرنة السامي للدافع السخي والمزايد الاخير Ecio Epist XIII, c 3 Samson Apolog LII c. 2.4

وهاك ايضا ما يقوله في صحيفة ٤٨ من الجزء نفسه (وحين وطد العرب اركانهم في اسبانيا اخذوا لا يسيرون بحسب معاهداتهم سيرهم الاول من حيث الضبط يوم كانت قواهم لا تزال متزعزعة البنيان ففي قرطبة لم يحفظ للمسيحيين غير كاتدرائية مار منصور بمعاهدة عقدوها مع الفاتحين اذ ان بقية كنائسهم هدمت . ان العرب حافظوا على نصوص معاهدتهم هذه السنين ولكن حين كثرت المهاجرة السورية

في قرطبة كما فعلوا في بيع النصارى بدمشق وحمص وغيرهما من بلادهم حيث نزعوا من مسيحييها انصاف كاتدرائياتهم وحولوها الى مساجد (راجع ابن بطوطه تحفة النظار في غرائب الامصار صفحة ٥٢ — ٥٣ من الجزء الاول طبعة مصر و رحلة ابن جبير صفحه ٣٦٢ طبعة ليدن سنة ١٩٠٧ والاصطخري صفحة ٣٣)

ان المقري لا ينكر نقض معاهدة قرطبة بل يذكر في الجزء الاول صفحة ٣٦٢ من الطبعة الازهرية المصرية في هذا الصدد ما ياتي : « نظر عبد الرحمن في امر الجامع فذهب الى توسعته واتقان بنيانه فاحضر اعاظم النصارى وسامهم بيع مابقي بايديهم من كنيستهم لصق الجامع ليدخله فيه واوسع لهم بالبذل وفاء بالعهد الذي صولحوا عليه فابوا بيع ما بايديهم وسألوا بعد الجد بهم ان يباحوا بناء كنيستهم التي هدمت عليهم بخارج المدينة على ان يتخلوا للمسلمين عن هذا الشطر الذي طولبوا به فتم الامر على ذلك ».

هذا ما نود اثباته في شان ملاحظتكم الاولى ولعلكم تؤيدون قولنا (ان العرب لم ينظروا الى معاهداتهم نظرهم الاول لها حين ابتداء الفتح) وان كانوا آية في التسامح عموما .

اما القول بان عبد الرحمن لا يجرا على احراج صدور اولاد غيطشه ومن والاهم واتصل بهم لانهم حزب كبير ولان عبد الرحمن حاذق فطن ولان المركز كان حرجا بين الاحزاب المتعددة والاطماع المتنافرة فلا يعني انه لم يقدم على حجز املاك ارطباس وهو الذي فتك بالاحزاب

الواحد اثر الآخر ولم يرحم عربيها من بربريها اواسبانيها في سبيل توطيد الدولة الاموية في قرطبة . وهاك ايضا ما يقوله دوزي في هذا الخصوص ج ٢ صفحة ٤٩ «ان عبد الرحمن صادر املاك ارطباس لانها كثيرة على مسيحي بعد ان عاهده عليها طارق وثبت ذلك الخليفة نفسه» وقد جاء في المقري ج ١ صفحة ١٢٤ في شان تثبيت المعاهدة ما ياتي «وقد انفذ طارق اولاد غيطشه الى امير المؤمنين الوليد بدمشق فلما وصلوا الى الوليد اكرمهم ونفذ لهم عهد طارق في ضياع والدهم وعقد لكل واحد منهم سجلا» راجع ايضا صفحة ٤٧ من كتاب Whishaws Arabic Spain

اذا صحت رواية العلامتين (المنصفين) Whishaws في ان عبد الرحمن ارجع لارطباس عشرين ضيعة (راجع صفحة ٥٣ من كتابهما) من املاكه التي كانت الف ضيعة (راجع المقرى ج ١ صفحة ١٢٥) فيكون قد ارجع له ١/٥٠ من املاكه وهذا ايضا خرق لحرمة المعاهدة . اليس كذلك ؟

ان رايكم القائل بانه ليس من المعقول ان يكون ولدا غيطشه على جناحي جيش لذريق وهو مغتصب عرش ابيهم فقد سبقكم اليه «العلامتان المنصفان» Whishaws في كتابهما صفحة ٤٣ وتابعتموهما على ما يظهر لنا وهو قول ليس لنا ما يثبته ولكنه وجيه بناءه على ان ما اوردناه اتى به قبلنا المقري ج ١ صفحة ١٢٠ وكوبه ج ١ صفحة ٢٦٥ وهو محتمل الوقوع لاسيما وان البلاد كانت تجاه عدو واحد فاتح .

فتح الاندلس [1]

حضرات الافاضل اصحاب المقتطف

سلاما واحتراما وبعد فقد طالعت في الاعداد الخمسة الاخيرة من المقتطف رسالة ممتعة للكاتب الفتى انيس افندي النصولي موضوعها «فتح الاندلس» ولما راقني منها جلها وخالفته في بعضها احببت ان تفسحوا لي مجالا — اذا طاب لكم ذلك بين صفحات المقتطف لنشر كلمتي هذه عنها ولكم الشكر من قبل ومن بعد .

استهل الكاتب رسالته بكلمة عن الحالة العمومية في الاندلس ثم فصلها تفصيلا فعدد العناصر المختلفة المؤلفة لمجموع سكانها كالسلتي (الاسباني الاصلي) والروماني والقوطي واليهودي ثم بسط الفوارق التي بين كل منها وبين منزلة هذا وذاك ومقدار نفوذ كل منهما في هيئتهم الاجتماعية .

ثم تطرق الى ذكر الاخلاق وما وصلت اليه من الانحطاط البين واستطرد الى الحالة السياسية وبين الاحزاب المختلفة النزعة والتي كانت قد بدأت الاحساد تأكل صدور اصحابها حتى افضى نزاعهم وتشاكسهم الى اقتحام العرب لبلادهم واكتساحهم اراضيهم ثم اضرام الثورة الفكرية بين افرادهم .

(١) المقال الذى نشره الاستاذ زكى النقاش فى مقتطف يوليو ٩٢٣ ، انتقاداً للفصل الاول من هذا الكتاب .

ولقد كان الكاتب في رسالته كما كان في مقدمتها لا يعتمد على راي الا بعد قرعه بالرأي وتمحيصه حتى وحد بين مختلف آراء عدة مؤرخين من افرنج وعرب والفضل في ذلك يعود لتضلعه من اللغات الثلاث العربيـة والانكليزية والافرنسية وللطريق العلمي الذي سلكه في تدبيجه الرسالة وكفى بهذا الاسلوب مشوقا لمطالعتها ومرغبا لاستزادة الكاتب في طرق تلك المواضيع المفيدة التي بات مجموعنا بامس الحاجة اليها وقد كاد ان يسود الخيال على الاذهان وان يستولي الجمود على القرائح فيفسد على الناس اذواقهم اذ اصبح المتطفلون لا يجدون سواه سبيلا للكتابة والتحبير . فالى الامـام ايها الاخ الانيس وزودنا بمـا لديك من امهات المواضيع مصورة بذلك القلم السيال مطبوعة بذلك الطابع الجديد اعني به الاسلوب العلمي الاستقرائي البعيد عن الخيال الجاف الذي لا يسمن ولا يغني من جوع والمملوء بالحقيقة المجردة غذاء العقول و القلوب .

امـا ما اخالف حضرة الكاتب فيه فما جاء في صفحة ٣١ من مقتطف يناير حيث قال « ان طارقا اتى اسبانيا بحملة لا كتشافها وسلب شواطئها كمن سلفه » . ولقد كان هذا الراي له استنتاجا عقليا كما ذكر مستنداً على النقاط الاتية :

(١) قلة عدد الجيوش التي كانت تحت امرة طارق

(٢) دعوة للمؤرخ « عريب » (وقد كاد ان يكون مجهولا لولا جملة له وردت في كتاب المؤرخ دوزي فتمسك بهـا) وهي « مادعاك

الى الايغال والتقحم في بلاد بغير امري وانما كنت بعثتك غازيا ثم تنصرف » هذا على زعم صاحبها قول موسى لطارق حينما التقى به في اسبانيا.

(٣) ان الزوارق التي ام بها العرب الاندلس لم تكن لابناء غيطشه بل للكونت يوليان ثم شفع براهينه هذه بقوله « ان ابناء غيطشه والعرب انفسهم لم يفكروا بالفتح الا عند تضعضع الجيش القوطي امام جيش طارق ».

هذا رأي الكاتب مع ما اسنده اليه من الحجج النقلية والعقلية اما رايي في الامر فيخالفه للاسباب الآتية :

(١) ان قلة جيوش طارق كدليل على نزول العرب الاندلس لمجرد الغزو لا تقنع لان العرب لم يسبق لهم ان فتحوا من البلاد غير اسبانية بجيش اعظم ولا هاجموا ممالك غير مملكة القوط بعساكر اكثر.

(٢) ان معاهدة ابناء غيطشه تدل صريحا على انهم كانوا معتقدين ان القوم انما ارادوا الفتح ولولا ذلك لتضمنت بنوداً تدل على طلبهم ارجاع الملك اليهم وهم لم يفعلوا ذلك بل اقتصروا على طلب ضياع ابيهم (ص ١٢١ من المقري ج ١).

اما مسألة السفن التي ام العرب بها الاندلس وانها تخص يوليان دون ابناء غيطشه فليست لتدل على ان اولئك علموا بمجيء طارق فاتحا او غازيا بل انها تبرهن على يقظة يوليان وشدة تكتمه في امر مؤامرته مع طارق حتى انهم لم يخابروه الا عندما استنفرهم لذريق

وطلب اليهم ان يكونوا كلهم يداً واحدة على العدو المشترك ثم عوضا عن ان يعملوا معه متناسين الاحقاد امضوا تلك المعاهدة المعلومة بنودها.

وهنا اراني اتساءل ان كيف جاز لحضرة "كاتب ان يأخذ براي عريب دون راي ابن القوطية مع ان هذا معلومة مكانته وذاك مجهول مقدار تحققه.

(٣) زد على ذلك ان موسى لم يرسل طارقا للفتح الا بعد ان تثبت من خيانة يوليان الذى كان لا يزال حتى ذلك الوقت المانع الوحيد دون اقتحام العرب للاندلس كما يذكر المقري وما كاد يعقد له ويسيره حتى اخذ يبني السفن وهذا مما يدل على عدم اكتفاء موسى بالجيوش المرسلة تحت طارق للفتح الحقيقي لا للغزو الموهوم،

(٤) ثم ما كان يمنع موسى وهو الـ (Prepogandist) بحق والقائد الكبير من نشر الدعوة الاسلامية ومد السلطان العربي في بلاد اصبحت سهلة الفتح والانقياد لاسيما وقد علم ما آلت اليه حالتها من الضعف بسبب الاختلافات الجنسية والمنازعات الحزبية وما وعد به من المساعدة الداخلية ؟!.

(٥) هناك حجة اخرى ادعم بها اعتقادي وهي ماجاء في مقال الكاتب نفسه في (ص ٣٤ من عدد مايو من المقتطف) «ان احتلال العرب افريقيا الشمالية وسكناهم بها حرك بهم حب الفتح الخ .... لاسيما وهي تشبه سوريا بسمائها الصافية واليمن بطيبة جوها و....

اجل غنائها الطبيعي و ..... غيرهـا من الاسباب ، جملت العرب ان لا يتخلوا عنها وهي سهلة الفتح والقياد » اهـ .

(٦) ويجب ان لا نسهو عن كتابة موسى للخليفة واستئذانه بالفتح اذ لو لم يكن موسى قد وطد النفس على الفتح لما كان كتب الى الوليد في دمشق في ذلك ولمـا سهل عليه الامر حينما حذره من التغرر بالمسلمين ثم لم يكن تحذر الخليفة الا لجهله الحالة الحقيقية ولشدة رغبة موسى باقتحامها للوقوف على حقيقة امكانية الفتح .

(٧) اما عدم مجيء موسى منذ البدء فلواجب اكبر وهو اعداد السفن وتجييش الجيوش . وان هذا لكاف ليحول بينه وبين الافتكار بالفخر والنصيب الاوفر من الغنيمة .

واني اعتقد ان في ما اوردت مايثبت ان طارقا انما نزل الاندلس للفتح لا لمجرد الغزو فحسب .

ثم هناك امر آخر خالفت فيه حضرة الكاتب وهو ، دعواه ان طارقا قد احرق السفن التي اقلته وجيوشه الى الشواطئ الاسبانية ، واني لاثني على راي المؤرخ Copre وهو ، ان طارقا لم يحرق السفن المنوه عنها ، وادعمه بالادلة الآتية :

(١) ان المراكب لم تكن لطارق حتى يسوغ له التصرف بهـا كيف شاء .

(٢) ثم لما لم يأت ذكر احراق طارق للسفن الا في ذلك الخطاب المنسوب اليه المشكوك في صحته اصبحنا نرى امره ضعيفا وما هـذا

الخطاب عندي الا لاحد الادباء المتأخرين عن طارق، تمثل الحالة ورسمها بخطابه كما اوحى اليه الخيال لا كما حفظه التاريخ الثابت بالنقل والعقل معا وليس بالمعقول حدوث الاحراق لان طارقا لم يجتمع بجيش لذريق الا بعد ان قطع مسافة غير يسيرة من الشاطئ والخطاب يذكر ان طارقا احرق السفن عندما نزل الشاطئ وهذا كما هو بين وهمٌ لا حقيقة لانه لو صح ذلك عن طارق لكان فعله قبل ان يهاجم جيش لذريق المخيم حول قرطبة البعيدة عن الشاطئ غروراً كما ذكرت .

(٣) ولنذكر قول المقري من ان موسى مافتئ يبني السفن منذ وجه طارقا وقول Coppe ان الاسطول كان دوما حركة الاتصال بين الشاطئين الافريقي والاوربي . فكيف نوفق بين هاتين الحقيقتين وبين ذلك الوهم الا اذا رفضنا الاخير واخذنا بهما وهو الاقرب الى الصواب .

وفي هذا مايثبت ايضا ان طارقا لم يحرق السفن البتة .

هـذا ما احببت الفات النظر اليه . واني لاهنئ الاخ بفوزه واستزيده من مثل هذه الابحاث التي ترفع الستار عن مجد كاد ينسى لولا ان كان له امثاله فينعشون الامة بنسمات امجاد سلف لا يزال حيا بآثاره الخالدة وامجاده السالفة .

بيروت　　　　زكي النقاش

الفهرست

ملاحظة وواجب الشكر

سننشر المصادر التى اعتمدنا عليها مع فهرسين لاسماء الاعلام والامكنة التى وردت فى الكتاب فى الجزء الثانى وموعدنا بذلك قريباً انشاء الله .

وهنا لابد لى من شكر جميع اخوانى الادباء الذين آزرونى فى قراءة المسودات لاسيما عبد الحميد افندى حمدى . وقد وقعت بعض اغلاط مطبعية لابد منها ابداً لان مرتبي الحروف فى المطابع يريدون ذلك فلننزل عند مشيئتهم صاغرين واخيراً لابد لى من شكر مجلاتنا العربية التى نشرت فصول هذا الكتاب لاسيما المقتطف الاغر مشجعى الاول .

الرجاء اصلاح هذه الاغلاط المطبعية قبل قراءة الكتاب

الصفحة	الخطا	الصواب
٣٣	تراسان	تراجان
٤٩	شعراءها	سفراءها
٥٢	كثيرة	كثيرين
٥٢	ان ينظروا	ينظرون
٥٢	امر	الامر
٥٣	حدثها	احدثها
٥٣	تخص	تختص
٧١	بشمورهم	لشعورهم
١١٢	يهجم	يهاجم